

ابراهيم الاياري

# ميلاد دولة

سلسلة الطبع والنشر

مكتبة الأديب، مطبعتاها العامة، ط ١٩٧٧

الطبعة الثانية ورجعية

١ مكتبة الساموري، منشأة الجديدة



Bibliotheca Alexandrina



0125567



ابراهيم الاييارى

---

# ميلاد دولة

مؤلف: الطبع والنشر  
مكتبة الآداب ومطبعته بالجمهورية ١٩٧٧

المطبعة النموذجية -  
١ مسكة الساورى للعلمية الجديدة

المتربصين بهم الدوائر من الهاشميين أن يطوّحوا بهم بعيدا عن  
الملك ليثبوا هم إليه .  
وهكذا كان مغيب تلك الدولة الأموية .

\* \* \*

ولكنى فى هذا الكتاب « ميلاد دولة » غير محدثك عن هذا  
الخلاف القديم فى كثير أو قليل ، وغير محدثك عن الخلاف  
الذى كان بين ملوك بنى أمية ، ولا عن كيد بعضهم لبعض ،  
ولا عن خروجهم عن أسلوب الدين وأسلوب الدنيا .

ولكن حديثى إليك فى هذا الكتاب الذى بين يديك :  
عن تلك الفتنة الأولى الهينة الصغيرة التى ولى فيها الخليفة  
الثانى « عمر بن الخطاب » مقتولا ، وما صحبها من أسباب ، وما كان  
لها من أثر .

ثم عن تلك الفتنة الثانية التى ولى فيها الخليفة الثالث « عثمان  
ابن عفان » مقتولا ، كيف تهيأت ، وعما أيقظت ، وعما خلفت .  
ثم عن تلك الفتنة الثالثة التى ولى فيها الخليفة « الرابع على بن أبى  
طالب » مقتولا ، وما فوتت على الهاشميين وما أعطت للأمويين .

ثم عن تلك الفتنة الرابعة التي ولى فيها الحسين بن علي ،  
مقتولا ، يتبعه في هذه السبيل جملة كبيرة من أهله : وكيف  
زلزلت على الأمويين ملكهم ، وأيقظت أنصار هذا البيت  
الكريم على الثأر له ولآله .

ولكن الهاشمين ما كادت . تستوى لهم السبيل إلى الملك حتى  
فقدوا من يليه منهم ، فإذا هو لبني عمومتهم ، وإذا هم  
المبتلون بشره ، وإذا الدولة لمن لم يذق شر المسعى .

هذا كله في عرض يقع بك على مكان العظة ، ويلفتك إلى  
موطن الخير ، ويكشف لك عن مناحي الشر .

وأنا الحريص على أن يفيد الناس من صفحة انطوت على  
ما يسوء ، ليكتبوا صفحة لن يكون فيها إلا ما يسر ،

وإني بعد ذلك عند وعدى أن أسوق أخبار كل دولة في  
تتبيب والمعين الله وبه التوفيق ؟

ابراهيم اليبيارى

عصر الجديده  
ديسمبر سنة ١٩٥٩



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



قُتِلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ — عَامَ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ مِنَ الْهِجْرَةِ ، بَعْدَ أَنْ وَكَلَى أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ عَشْرَ سَنِينَ وَأَشْهُرًا ، فَكَانَ قَتْلُهُ وَأَدَاءُ الْحُكْمِ الْجُمْهُورِيِّ الشُّعُورِيِّ الَّذِي مَلَأَ الدِّينُ بِهِ نَفْسَهُ ، وَلَمْ يَسْتَوْحِشْهُ طَبْعُهُ ؛ فَلَقْدَ آمَنَ إِيمَانُ الرَّائِي الْمُنْتَدِبِ الْحُرِّ ، نَحْلًا عَقْلُهُ الْإِسْلَامَ يَتَدَبَّرُهُ ، وَصَفَتْ نَفْسُهُ لَهُ لَا يَغْلِبُهَا عَلَيْهِ هَوًى ، وَعَاشَ لَهُ يَرْجُو أَنْ يُطِيبَ بَقِيَّةَ كَمَا أُرِيدَ بِهِ ، نِظَامًا لْخَيْرِ الْمُسْلِمِينَ أُمَّةً لَا لْخَيْرِ فَرِيقٍ دُونَ آخَرٍ .

وَلَمْ يَدْخُلْ عُمَرُ الْإِسْلَامَ بِاسْمِ قَبِيلَتِهِ وَأَوْزَارَهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَإِنَّمَا دَخَلَهُ بِاسْمِ النَّاسِ جَمِيعًا ، مِنْ أَسْلَمَ مِنَ الْعَرَبِ وَمِنْ غَيْرِهِمْ ، وَمِنْ سُلُيْسَلِمَ مِنَ الْعَرَبِ وَمِنْ غَيْرِهِمْ ، فَلَمْ يَحْجُبِ وَلَمْ يَجَامِلِ ، وَقَسَا عَلَى أَهْلِهِ قَبْلَ أَنْ يَقْسُو عَلَى مَنْ لَيْسُوا لَهُ بِأَهْلٍ .

وَلَقَدْ اخْتَسَطَفَ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ — وَأَخْشَى مَا كَانَ يَخْشَاهُ أَنْ يَرْتَدَّ الْحُكْمُ جَاهِلِيًّا قَبِيلِيًّا تَعَلُّوْا فِيهِ كَلِمَةُ السَّادَةِ ، وَتَخْفَى

فيه كلمة الشعب ، وكأنه كان يحسها لاذعةً وهو على فراش الموت ، حين جمع إليه النفر الذين مات رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو عنهم راضٍ ، يوصيهم ، وهو يقول :

« أنشدك الله يا علي ، إن وليت من أمور الناس شيئاً أن تجعل بنى هاشم على رقاب الناس !

أنشدك الله يا عثمان ، إن وليت من أمور الناس شيئاً أن تحمل بنى أبي مُعيط على رقاب الناس !

أنشدك الله يا سعد ، إن وليت من أمور الناس شيئاً أن تحمل أقاربك على رقاب الناس !

قوموا فتشاوروا .»

ولم تكن عشر سنين حكمها عُمر ، إلى سنتين قبلها وليهما أبو بكر ، إلى أربع وعشرين عاماً عاشها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بين العرب داعياً وموجهاً ؛ لم تكن هذه السنون الست والثلاثون كافيةً بأن تنزع من قلوب السادة السيادة الجاهلية الغاشمة المستبدة ، وإن انتزعت غيرها من إثم الجاهلية ؛ ولا أن تنزع من قلوب الشعب المسُود الرهبة الصماء والطاعة



العَمِيَاء ، وإن كادت لتبلغ — حين هَبَّ إلى عمر عربى من العامة — وهو يَرهب عمرَ فى الحق ولا يرهبه على الباطل ، ولا تمنعه طاعته له أميراً على الأُمة أن يحاسبه فرداً عن هذه الأُمة ، فيقول له : والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بحد السيوف .

فلا يغضب لها عمر ، وإن بدت قاسية ؛ فلهلها جاء الإسلام ، ولملها عمل عمر .

وما كان قَتَلَ عمر فى فتنة من تلك الفتن التى ثارت بين المسلمين بعد ، وقَتَلَ المسلمون فيها بعضهم بعضاً ؛ من أجل ذلك مَرَّ قَتْلُهُ — رضى الله عنه — على خطره دون أن يُشير فتنة ؛ لأنه لم تُهَيَّ له فتنة ، ومن أجل ذلك اطمأنت نفس عُمر وهو يُودع دنيا المسلمين للمسلمين نقية من الخلف يذنبهم أو الخلاف عليه ، فما هى بالهيئة على الأهم أن يمضى الحاكم مقتولاً ، وما هى بالهيئة على نفس الحاكم أن يرى النفوس التى حكمها ليُرضيها قد أثارته ولايته عليهم سُخْطاً عليه ؛ لهذا أمر عُمر ابنه عبد الله قلقاً أن يخرج فينظر مَنْ قَتَلَهُ ؛ ولهذا استمع عمر

إلى عبدالله مطمئنا حين أنهى إليه أن قاتله هو « أبو لؤلؤة المجوسي » ،  
 غلام المغيرة بن شعبه ، ولهذا نسي عمر حرّ الجرح في جسمه  
 وقال : « الحمد لله الذي لم يجعل مني بيدي رجل سبحانه وتعالى » .  
 ثم التفت مشغولا برعيته التي شغلته حياء يريد أن يؤدّي لها  
 ما عليه ، قبل أن يفصل الموت بينه وبينها ، شأن الراعي الأمين  
 الذي يعلم أن حياته كلها منذ أن يلى إلى أن يموت لتلك الأمانة  
 التي تولّته ليس له منها شيء ؛ لذلك لم يشأ عمر أن يختص  
 نفسه منها بشيء حتى هذا الرّمق الباقي له . لم يعط منه جسمه  
 حقا ، ولم يعط منه أهله حقا ، بل زحمة بما لم تتسع له الساعات  
 الطوال ينظر في أمور رعيته . وأرسل ابنه عبد الله يدعو إليه  
 هؤلاء النفر الذين مات عنهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم —  
 وهو عنهم راضٍ يوصيهم .

ولكن القاتل — على مجوسيته — كان رعية يراه عمر مع من  
 يرعى من المسلمين ، له مثلهم من عدله وإنصافه ، وعلى عمر  
 وأمثال عمر أن تفرع نفوسهم حين يشور هذا ، كما تنور  
 نفوسهم حين يفرع المسلمون ، وإن اختلف معنى الفزعين ،

فأولاهما فزعة تُسَى إلى الحاكم في عدله العام ، وثانيتها تُسَى إليه في عدله الخاص .

وما نظن عمر أهمل عدله العام بعددله الخاص ، ولا نسى إنسانيته المجردة بإنسانيته المقيدة ، ولكن وراء أبي أوثة شيئاً لا يقوى عليه عمر إلا إذا تجرد عن رسالته التي كانت امتداد الرسالة الرسول ، ثم امتداداً لحكم أبي بكر . فما نظن أبا أوثة حقد على عمر أنه لم يحطّ عنه درهمين كانا عليه لمولاه المغيرة ، وكان هو صناع اليد يحترف النجارة والحدادة في بيئته يُعوزها النجار والحدّاد . ولكننا نؤمن أن أبا أوثة كان يحقد على عمر إبعاله في فارس وغير فارس من الأقطار غير المسلمة ، وكان يحقد عليه تلك الضحايا التي استكبرت وأبت على عمر أن تشيع كلمة الله ، وما يدرينا : هل من بين تلك الضحايا من كان أهلاً لأبي أوثة ؟ وإن لم يكن فلقد عدّهم جميعاً آله ، وإن بقى أبي أوثة حيث هو مجوسياً لم يتحول عن مجوسيته ليس بعيداً عن المسلمين ، ولكن قريباً منهم يُساكنهم ويعاملهم ، دليل على نفس الرجل وما تحمل من حقد ، لا لدرهمين لا يقيمان

الأود ، ولكن لعقيدة وُتْرِفيها ورأى الواتر له عمر .  
ولكنني على هذه لا أريد أن أنفي هذا السبب الهين الذي  
يذكره المؤرخون ، وأنا إن ذكرته أريد أن أحمّل المغيرة  
ابن شعبه شيناً من التبعة فيه .  
فلقد عودنا عمر في الكثير مما يتصل بالمغيرة أن يكون  
به رحياً شيناً ما ، رحمةً لا تُضار المسلمين ولا تُضار حقـوق  
الإسلام ، ولكن رحمة خشي إن لم يفعلها أن يضار حُرّاً هاجر  
في سبيل الله . وكان هذا المعنى كبيراً في نفس عمر ، يعظمه ويجاهد  
أن يحفظه بسياج من الإكبار .

من أجل هذا وقف عمر من المغيرة حين شهد عليه  
أبو بكر وأخواه : نافع وزيد ، وشبل بن معبد . بالزنى .  
ولقد اضطربت لها نفس عمر حين شهد على المغيرة ثلاثة منهم  
شهادة توجب عليه الحد ، ويقدم رابعهم «زيد» على عمر ، ويراہ  
عمر مقبلاً ، ويتمنى عمر لو جاءت شهادة زيد غير قاطعة ،  
ويتحرك لسانه بأمنيته فيقول : «إني لأرى رجلاً أن يخزي الله  
على لسانه رجلاً من المهاجرين» ، وتمضى شهادة زيد بما تمنى

عمر ، وفي يقينه أن المغيرة غير برى ، ولكنها جريرة لا تقول  
فيها النفوس بما تؤمن ، ولكن تقول فيها الشهادات بما يرى  
أصحابها في جلاء ووضوح .

ويقوم عمر الحد على الشهود الثلاثة ، ويفرح لها المغيرة  
وينظر شامتا بالشهود وهو يقول : الحمد لله الذي أخزاكم !  
وهنا يملئ يقين عمر على لسانه : اسكت أخزي الله مكاناً واراك .  
وبمسكها على بن أبي طالب على مضض - وكان حاضرها - ، إلا  
أنه لا يملك أن يحمل زياداً على أن يصرح بأكثر مما صرح .  
ويرى أن هناك حداً قد وجب هان فيه زياد ، ولم يشتد فيه عمر ،  
رفقاً بمهاجر من المهاجرين ، ويخرج منها « على » بنفس كظمة ،  
ويخرج منها عمر بنفس راضية مطمئنة .

ويضرب أبو بكر فلا يثنيه ما نال عن أن يعود فيشهد أن  
المغيرة فعل ، ويكاد يخرج عمر عن اطمئنانه ورفقه ، ويهم بضرب  
أبي بكر ، فلا يقوى « على » ، على كظمه ، ويوعد برجم المغيرة  
إن ضرب عمر أبا بكر : فيكف عمر .

تلك واحدة تدلّك على رفق عُمر بالمغيرة ...

وتم ثمانية تدلّك على استغلال المغيرة هذا الرفق والمباهاة به في حق وغير حق .

يحكون عنه أنه قال : أنا أول من رشا في الإسلام : جئت إلى دِرفأ ، حاجبِ عمر وكنت أجالسه ، فقلت له : خُذ هذه العمامة فالبسها فإنّ عندي أختها . فكان يأنس بي ويأذن لي أن أجلس من داخل الباب ، فكنت آتي فأجلس في القائلة فيمرّ المارّ فيقول : إن للمغيرة عند عمر منزلة ، إنه لا يدخل عليه في ساعة لا يدخل فيها أحد .

فعلى مثل الأولى وعلى مثل الثانية عاش المغيرة بين المسلمين خلافة عمر ، يدلّ على من لاحول له إدلالاً تختلف درجته في نفوس هؤلاء المستضعفين ، وكان أبو اؤلؤة أحدهم ، شكاه إلى عمر وفي نفسه ما في نفوس أمثاله من عمر لتقريبه المغيرة هذه القُربى الموهومة ؛ فلما لم ينل ما يريد من عمر تأكد عنده ماوهم ، واستيقظت في نفسه تلك البواعث الأولى ، فأحيا شراً ؛ وقتل عمر ، وكان المدبّر له المغيرة ، إن صح أن نُسبى هذا تدبيراً .

وإن في عدول أبي لؤاثة عن المغيرة - وهو ظالمه الأول -  
إلى عمر - وهو الملعين لظالمه - كما خال - ما يؤكد أن السبب الحق  
في ثورته بعمر هو مجو سينه التي انطوت عايمها نفسه واضطربت  
بها ، حتى إذا ماهاجها ما كان من ظلم المغيرة وخذلان عمر ثار  
يقتل عمر ، وهو يظن أنه يقتله للثانية ، وما قتله إلا الأولى .

ثم يُقتل عثمان بن عفان — رضى الله عنه — فيكون قتله  
مهيئاً لأن يعود الأمر أدرأجه استبدادياً ، كما كان فى جاهليته ،  
وإن اختلفت الصورة .

وما أصدقها كلمة جرت على لسان ثمامة بن عدى — وكان أمير  
صنعاء يوم قتل عثمان — اليوم نزعت الخلافة من أمة محمد  
وصارت ملكاً وجبرية ؛ من غلب على شيء أكله .

فلقد غلب الأمويون عثمان على أمره فشتغلوه بأنفسهم  
أقرباء ، وجنحوا به إلى ما حشيه عمر عليه وحذره منه ؛ وغلبه  
على أمره سادتهم الطامعون فى الاستئثار بالأمر بعده يريدون أن  
يفوتوه على « على » وكانوا يروء له غير منافس .

وجلس معاوية يقطع الأمور دون عثمان ، يصرفها على هواه  
لئلك الغاية التى ينشدها وهو يقول للناس : « هذا أمر عثمان » .  
يشجعهم على ذلك ميل كان فى عثمان فطرياً إلى صلة ذوى رحمه ،  
فلقد سمعوه يقول : « إن أبابكر وعمر كانا يتأولان فى هذا المال



ظلم أنفسهم وذوى أرحامهم ، وإن تأملت فيه صلة رحى ،  
وكانت الثورة بعثمان ؛ ثورة شارك فيها الشعب مأجورا  
مسيوقا ؛ لم تكن ثورة من صنعه ، وإنما كانت من صنع السادة  
الذين فزعوا بتدبير الأمويين ، سيروا لها فلولا من يخلف  
الولايات تمتحيم على هذا الخليفة المظلوم ذاره ، وتسال منه  
أشد السيل .

دخل عليه « علي » في محنته هذه القاسية ؛ لا ليشد أزره ولا  
ليثبت عنه ؛ ولكن ليقول له : « إني أحذرك الله وسطواته  
ونقباته ، فإن عذابه شديد أليم » .

ويدرك عثمان قسوة « علي » به ساعة يرجوه أعطف الناس  
عليه ، فيقول له : « أما والله لو كنت مكاني ما عنفتك ولا أسلمتكَ  
ولا عبت عليك » .

وكان « علي » يرى أنه صاحب حق أبعد عنه ثلاث مرات :  
الأولى يوم بايع الناس أبا بكر ، فغضب لها ولبت محتجبا مدة  
ثم بايع .

والثانية يوم أوصى بها أبو بكر لعمر ، فسكت عنها

وفي النفس شيء ...

والثالثة يوم ترك «عمر» الأمر شورى ، وما كان أطمع  
«علي» في أن يؤهى به «عمر» كما أوصى أبو بكر بهمر ،  
ولا يتركه بين نفر غيره كلهم طامع فيها مناهض له .

وها هو ذا يراها تكون الرابعة ، والساعى إليها رجل من  
وراء الصفوف ، هو معاوية ، وليست له سابقة ولا فضله ،  
ويرى «عثمان» بتراحيه يمكن له .

من أجل هذا أنسى «علي» الرفق بعثمان ومؤازرته في  
محنته ، ومن أجل هذا أنسى «علي» ما ذكر به عثمان : « وأحذرك  
أن تكون إمام هذه الأمة الذى يُسقى فيها القتلى والقتال  
إلى يوم القيامة ، ويلبس أمورها عليها ، ويتركها شيعاً لا يبصرون  
الحق لعلواً الباطل » .

\*\*\*

والشعب الذى حرك لتلك الثورة كان متعطشاً إلى ثورة ،  
لأن الباب الذى فتحه عليه الرسول وأبو بكر وعمر — من  
الحرية والعدل والمساواة — سدّه عليه عثمان غير مختار بإقحام

الأمويين أنفَسَمهم عليه بوجهون الأمور في غير عدل ولا مساواة، ولم تكن له حرية في أن يقول أو ينقض ما يفعلون ، ولكن الشعب مع هذا الضيق لم يبلغ أن يدبّر لتلك الثورة ، ولم يبلغ أن يكون تدبيره على هذه الصورة المؤلمة التي انتهت بمقتل عثمان ؛ فلقد كانوا حين اجتمعوا بالمدينة لا يبلغون الآلاف . من المصريين ستمائة ، ومن الكوفيين مائتان ، ومن البصريين مائة . وكان فِطْنهم ونقض أمرهم عليهم — إن كان لهم أمر جدمبرم — شيئا يسيراً على أهل المدينة وذوى الرأى فيها لو أرادوه . وصدق أبو جعفر القارىء حين قال : « ولعمري لو قام بعضهم فُشاً في وجوههم التراب لانصرفوا خاسرين » .

ولكن المدبرين للأمر استطاعوا أن يجمعوا الثائرين من شتى الأقاليم لجهاد عثمان ، ثم تركوا لهذه الجموع الحبل على الغارب تموج في الفتنة كما تشاء ، ولو أن هؤلاء المدبرين للثورة دبّروا لغيرها ، واجتمعوا على رأى لانتها بهم إلى في يسر ، ولسلم عثمان من القتل ، وسلمت الأمة من تلك الفتنة الهوجاء ؛ ولكنهم تركوا عثمان يواجه تلك الجموع

المتألمة بمنطقة ، ولقد كاد يردّها عنه حين قال لهم : « والله ما قصرت عن بلوغ ما بلغ من كان قبلي ، ولم تكونوا تختلفون عليه ، لأنهم - كما قلت - لم يثوروا عن رأيهم وتديبرهم ، وإن كانت ثورتهم عن رأى غيرهم ، ولولا مروان بن الحكم - حين انبرى للناس بعد عثمان يقول : « إن شئتم حكمتنا والله ما بيننا وبينكم السيف » - لا نقضت الفتنة في مهدها وعاد عثمان معافاً وكان شيتاً لم يسكن .

ولكن الشعب الذى سكن لكلام عثمان هاج لكلام مروان ، سكن لكلام عثمان لأنه ، لم يجتمع له رأى فى الغضب عليه ، فأرضاه منه هذا القليل فأطمأن : ثم هاج لكلام مروان ، لأنه حرك فيه هذا القليل الذى أثاره على عثمان فمضى فى ثورته أقسى ما يكون ، ولم يجد غير عثمان يردّه إلى سكونه بكلمة مثل كلمته ترد عليه طمأنينته .

وهكذا أصبحت هذه الثورة المملوكة المزيفة ثورة حقيقية ، وأصبح هؤلاء الشذاذ الذين جاءوا المدينة لا يعرف بعضهم بعضاً ، ولم تجمع بينهم من قبل ندوة يدبرون فيها الرأى ،

ولأنما استُجلبوا إليها كما يستجلب العَمَلَة ؛ أصبحوا بعد أن  
حلّوا المدينة وواجهوا عثمان وواجههم ، واستفزهم مروان  
وأثارهم ، تجمع بينهم كلمة ، ولكنّها بقيت على الرغم من  
هذا كله كلمة ينقصها الرأى الناضج الذى يهدد للثورة فى  
النفوس ، والبقين الراسخ الذى يدفعهم إلى الهدف ؛ لذلك  
بقوا فى المدينة أربعين يوما فى هيط وميط واضطراب وبلبلة  
لا يدرون ماذا يفعلون .

وكان المدبرون للأمر من خلفهم هم الآخرون لا يعرفون  
ماذا يفعلون ، ولا إلى أى هدف يهدفون ، ولكنهم كان  
يعنيهم أن يدوم هذا الاضطراب ، فلم يحاولوا أن يصرفوا  
الناس عنه بتدبير يجنح إلى السلم يلزمون به عثمان .

وما أسرع ما تضم الثورات إليها — إن دامت — حشالة  
القوم ، ينضوون إليها عن حيوانية لاتزال فى فطر الناس ،  
إذا هاجت فيهم غلبتهم على عقولهم وتفكيرهم ؛ ثم عن مطامع  
دنيوية ينتهزها المغلوب ليصبح غالبا ، والمحروم ليطلق ظمأ  
الحرمان .

ولقد أنس الناس بحُكْمين : حُكْم أبي بكر ثم حُكْم عمر ،  
ذاقوا في ظلمهما معنى التحرر من نير قریش الذى حملته عواتقهم  
فى تلك الجاهلية الأولى الطويلة ، لم يملكوا أن يلقوه عنهم حتى  
كان الإسلام فسوى بين الناس ولم يجعل لِسادة الأُمس سطوتهم  
على عباد الله .

وأطمأن الناس إلى خلافة أبي بكر ثم خلافة عمر لأنهم  
رأوا فيهما انتصافاً من ماضٍ مظلم لم يَل فيه الحُكْم إلا قرشى .  
فلما آل الأمر إلى عثمان قبلوه مؤمنين به منكرين له ، آمنوا  
به لأنه شىء أملتة الشورى — وإن لم تكن شورى كاملة —  
وآمنوا به ، لأن عثمان وإن كان قرشياً فهو شريكهم فى جهاد  
طويل حمل فيه عبثاً كبيراً ، وتنكراً واهلاً لأنه قطع فى نفوسهم ذلك  
الأمَل الذى بدأ ، وأطفأ فى نفوسهم هذا الرجاء الذى أشرق فيها .  
أحسها سعيد بن العاص وهو وال بالكوفة حين انتهى إليه  
وقوع وجوه أهل الكوفة فى عثمان ، ولقد سيرهم إلى معاوية فى الشام  
عن أمر عثمان ، وناقشهم معاوية وناقشوه ، فإذا ما تنطوى عليه  
النفوسُ النعمة على قریش تردهم ولاية عثمان إليها وتبهرهم فى نفوسهم .

وكما أغضبت ولاية عثمان غير القرشيين فتشكروا له شيئا ،  
أغضبت الهاشميين لأنها ستمكن للأمويين وتردهم إلى سيادة غلبهم  
عليها الهاشميون .

ولقد اضطرب هذا المعنى وذلك في نفوس هؤلاء وهؤلاء  
دون أن يحسوه أولا ، ثم أحسوه حين طالت بالثورة أيامها  
وأخذ الثائرون فيها وأعطوا ، فاجتمعوا على أمر آخر أخفوه في  
نفوسهم وأعلنوا غيره على أنفسهم ، وكان هذا الذي أعلنوه  
يحرك الذي أخفوه ويزيدهم به إيمانا وعليه قوة ، فالتقى الأمران  
وكان معهما أمر واحد .



ويبلغ الثوار أن أهل الأمصار المناصرين لعلّ سائرون  
إليهم ، ويحس المدبرون للأمر أن شيئا سيقع يقطع على هذه  
الثورة امتدادها ويردهم لم ينالوا شيئا ، ويتراءى لهم حقهم  
المسلوب ، وقد اجتمعوا منه قاب قوسين أو أدنى ، يوشك أن  
يحال بينهم وبينه إلى غير رجعة ؛ هنا يغلب الطيش العقل ،  
وتهيب بهم النفس الثائرة : كن عبدالله القاتل ولا تكن عبدالله المقتول .

ولكن عثمان خليفة له السابقة في الإسلام والفضل على المسلمين ،  
ولم يكن الذي شاع عنه من شريمحو الذي ثبت له من خير ،  
فيلتفّ الثأرون ببئته يقدمون رجلا ويؤخرون أخرى ، يشتمون  
في حصاره ولا يحرقون على اقتحام داره .

ويقتل المدافعون عن عثمان رجلا من الثأرين به - هو : نيار  
ابن عياض - ويطلب الثأرون من عثمان القاتل فيأبى أن يسلمه  
إليهم ، وهو يقول : « لم أكن لأقتل رجلا ينصرني وأنتم  
تريدون قتلي » . فينقلب إحجام الثأرين لإقداما ، وتراخيهم عزما ،  
وإذا باب الدار محرق ، وإذا الثأرون قد التفوا بعثمان .  
ولكنهم على ذلك كانوا أهيب من أن ينالوا منه أو يسفكوا  
له دما ، ووقفوا من حوله مهوتين مأخوذتين يريدون أن يهيموا  
به ؛ ولكنهم لا يقوون على ما يريدون .

ولكن من وراء هذه الثورة غير الواعية ثورة أخرى  
واعية ، فلقد كانت الأولى ثورة للناس يلفهم الهيج فيها بوثاق  
لا يحلهم منه إلاّ بطش رادع ، فإذا لم يرزقوه ظلوا على هيجهم ،  
يحمسهم له أنهم معه ما لكون ومع غيره مملوكون ، ربما أعطش



النفوس المملوكة إلى أن تحس أنها مالكة ، والويل للمالكين إن هم حركوا المملوكين بالظلم أو العنف إلى أن ينسوا طاعتهم وانقيادهم لهم .

ثم كانت الثانية ثورة ذات مطمع من وراء تلك الثورة غير ذات المطمع ، وكانت هي التي حركت الناس فلبوا النداء ، وهم يخالون أنهم يُصدرون عن كراهية لبعشان ، وما علموا أنهم يُصدرون عن تلك الحرية التي يكتبها النظام وإن بدا عادلا ، فما بالك به وإن بدا جائرا . من أجل ذلك لبثت تلك الثورة متعثرة الخطى لا يملك الثائرون فيها رأيا قاطعا . ويحس الثائرون بعثمان — عن وعى وتدبير — عاقبة تردد الثائرين بعثمان عن غير وعى وتدبير ، ويخشون الزمن إن امتد ، إذ لا بد مع امتداده من إحدى اثنتين :

إما أن يفقر الثائرون ويهنوا ، فليس في ظل الحياة النائرة استقرار ، وليس للناس حياة مطمئة يغدون فيها على أنفسهم ويروحون إلا في ظل هذا الاستقرار ، وما أحوج الناس إلى هذه الحياة المطمئة ، ثم ما أحوجهم إلى هذا الاستقرار

ليضمنوا تلك الحياة المطمئنة .

وإما أن يدخل على الثغورة ما يبطش بها ، وقد أحسوا  
بوادره .

عند هذا برز هؤلاء المستخفون لينالوا من عثمان بأيديهم  
ما طمعوا أن ينالوه على أيدي غيرهم ، ولم يكن منهم إلا كل  
موتور من عثمان : منهم من يرى الخلافة له ، ومنهم من انطوت  
نفسه على إحنة .

ولقد اختلف الشر في نفوس هؤلاء وهؤلاء ، وإن كان  
قد ملأ نفوس هؤلاء وهؤلاء ؛ ولكنه حين غلت به نفوس  
الأولين كان خلع عثمان هو كل ما يطمعون فيه ، ولكنه حين  
غلت به نفوس الآخرين ، كان قتل عثمان هو ما ينشدون .

وفرق بين حقد يثيره المغنم العام ، وآخر يثيره المغنم  
الخاص ، وما سلبت الحياة من الاثنين ، وما سلم الولاة الذين  
يسألون أمر الناس من ضمير الاثنين .

وما كان ثأرو البصرة — وهوام في طلحة — وما كان  
ثأرو الكوفة — وهوام في الزبير — وما كان ثأرو مصر —

وهو احم في علي — ما كان هؤلاء جميعا لينالوا من عثمان ما نيل منه لو لم يكن من ورائهم هؤلاء الذين أغضبهم من عثمان بشأن من شئون الحياة ، أمثال : محمد بن أبي حذيفة ، وعمار بن ياسر ، ومحمد بن أبي بكر ، وكعب بن ذى الحبكة ، وعمر بن ضابط البرجمي .

أما عن محمد بن أبي حذيفة ، فقد كان يتنميا في حجر عثمان ، ثم لما شب سأل عثمان العمل فأباه عليه ، وهو يقول :

لو كنت رضى لاستعملتك . فأسرّها ابن أبي حذيفة في نفسه ، وأنساه<sup>١</sup> بخيل عثمان بما لم يملك ، جوده بما كان يملك .

وأما عن عمار بن ياسر ، فلقد كان بينه وبين عباس بن عتبة ابن أبي لهب يوماً كلام ضربهما عليه عثمان ، لم يضرب عمارا دون عتبة ، ولم يضرب عتبة دون عمار ، لأنه رأى كلا منهما قد قذف صاحبه قذفاً يوجب الضرب .

وأما عن محمد بن أبي بكر ، فلقد كان إلى طامعه في الخلافة يحمل في نفسه لعثمان شيئاً ، وذلك حين لزمه حق فأخذه عثمان من ظهره .

وأما عن كعب بن ذى الحبيكة النهدي ، فكان يلعب  
بالسِّيرنجات — وهى شئ كالسحر — فبلغ عثمان ، فكتب إلى  
الوليد أن يُوجعه ضرباً .

وأما عن عمير بن ضابي ، فإنه عاش يذكر لعثمان تعزيره لأبيه  
وحبسه له حتى مات فى السجن ، ولم يذكر أن عثمان لم يفعلها بأبيه  
كيداً ، وإنما فعلها إنصافاً لقوم من الأنصار اغتصبهم ضابي  
كلباً ، ثم هجّاهم .

فهؤلاء وأمثالهم كانوا أجراً على عثمان ، وهؤلاء وأمثالهم  
هم الذين هوتوا على الناس قتل عثمان .  
وهكذا اجتمعت على عثمان فتن ثلاث :

فتنة تحرّكها الشعبُ باسم حقوقه التى له على الخليفة ، رأى أن  
الخليفة لم يحسن توجيهها ، وكان هذا جديداً على الشعب ، أعنى أن  
الشعب لم يكن يعرف أن له على ساداته حقاً ، وقد عاش قبل الإسلام  
يعرف أن لساته عليه كل الحق ، وليس له هو من الأمر شئ ،  
فعرّفه الإسلام هذا الحق له ، هداهم إليه الرسول قولاً وفعلًا ، ثم  
أيقظهم له عمر وحرّضهم على تعقب من يليهم : فلما نُسبوا له

أيام عثمان لم يسكتوا عنه .

وفتنة ثانية تحرك لها قوم ظاههم اختيار عثمان للخلافة دونهم ، ولم تكن هذه الفتنة إلا امتددا لما كان بين بنى هاشم وبين بنى عبد مناف من تنازع على الرياسة .

وقد حرك هؤلاء الشعب معهم يخفون هذا المطمع الذى ناله عثمان دونهم ، ويُظهرون الذى ثار من أجله الشعب على عثمان .

وفتنة ثالثة دخل فيها هؤلاء الموتورون من عثمان باسم هذا الوتر وحده ، لم يعرفوا غيره ، ولقد كان هؤلاء أفسى التأثيرين على عثمان وأعنفهم به ، يمد لهم فى غيتهم رضى الذين يحملون اسم الفتنة الثانية ، واسترسال الذين يحملون اسم الفتنة الثالثة ، وأنفسهم بالثورة يرونها متنفسا، ويحسونها خلاصا من طاعة الحاكم . وهكذا قضى عثمان يحمل وزر قتله أصحاب هذه الفتن الثلاث جميعا، ولكن ثلاثهم لم يغنموا شيئا .

فما غنم الموتورون: فمنهم من قضى مقتولا ، ومنهم من عاش مشردا ، ومنهم من أفلت من القتل والتشريد ليعيش على وخز ضميره

وعنف نفسه به .

وما غنم الهاشميون الذين رجوا أن تخالص لهم الحياة وتعود  
السيادة إليهم ، بل لقد عرّضوا أنفسهم لأذى كثير .

وما غنم الشعب الذي هبّ ليرد إليه بعض ما سلب منه ،  
فلقد عاد ليسلب منه كل شيء ، وليذوق حروبا طاحنة  
حصدت شيوخه وأبناءه حصدا ، وفتناً مظلمة كقطع الليل  
تنقض عليه مضجعه ؛ ثم إلى ما هو أدهى من هذا ومن ذلك ،  
فلقد رد إلى حكم فردي مُستبد ، وليس له في تدبير الأمور  
قليل أو كثير .

وإن الأهواء التي فَرَّقَت بين الناس في مقتل عثمان فَرَّقَت  
بينهم فيمن يَخَارُون للخلافة بعده .

لم يَقْوِ الطامعون في الخلافة على أن يُعلنوا عن أنفسهم ولا  
عن رغبتهم فيها ، بل صدّوا عنها حتى لا يسوء بهم الظن ، وحتى  
لا يُفسر الناس قعودهم عن إخماد الفتنة لوناً من المشاركة فيها .

وجسد الموتورون من عثمان حيث هم يتربصون بأنفسهم  
الدوائر ، ولم يكن واحد منهم أهلاً لأن يزكّي لها نفسه .

وأما الشعب فلقد لُقِّن أسباب السخط فثار ، ولو قدر له  
أن يلقن غيرها من الوعي والبصر لاجمع على من يختار .

ولهذا بقيت المدينة أياماً خمسة يلتمس الناس من يقوم  
بالأمر فيهم فلا يجدونه ، وكان أخشى ما يخشونه أن يتقلب الثائرون  
إلى أمصارهم دون أن يخلّصوا عليهم خليفة ، فتتفرق كلمة  
المسلمين ويعودوا أوزاعاً وأشتاتاً بعد أن كانوا يداً واحدة .

ودبّ في النفوس لون من ألوان اليأس لا يكون إلا حين

يفقد الناس ثقتهم بسادتهم وأولى الرأى والتدبير منهم ، وهو حين يكون يجر الأمة إلى متلفه قاصمة ، ثم يجرها إلى فوضى قائمة ، ثم يجرها إلى بلبلة لا تُففيق منها إلا على البوار والخسران .

كاد هذا اليأس القاتل يدب في نفوس الشعب ، فما من شك في أنه تحرك للثورة غير بعيد من رأى أولى الرأى ، وما من شك في أنه تحرك للثورة ورأى أولى الرأى في قلبه وعلى لسانه .

وإذا هذا الشعب — بعد أن حقق ما أراد على غير ما أراد — فلقد أراد إخراج عثمانيين من الخلافة ، ولم يرد إخراجهم من الدنيا على هذه الصورة المردولة — إذا هذا الشعب يلتمس أولى الرأى ليحققوا له الأمن والطمأنينة ، بعد ما حقق هو لهم الانتصاف عن رضى بالجور في التدبير .

فإذا أولو الرأى عن الرأى صادفون : يجدون طلحة في بستان له ، ويجدون سعداً والزبير قد خرجا من المدينة ، ويجدون بنى أمية قد هربوا إلى مكة وإلى غير مكة ، وإذا أتوا علياً باعدهم . ولقد يئس الشعب من عثمانيين فثار به ، وها هو ذا يئس من أولى الرأى فتمتلئ نفسه ثورة عليهم ، ولقد بدأ



يُبرق ويُرعد ، وهو إذا أبرق وأرعد فقد أُنذر ، وإذا أُنذر فقد أوشك أن يشور .

أحسبنا منه هذا الإبراق وهذا الإرعاد . وأحسبنا معهم الإنذار ، وأحسبنا مع هذا الإنذار التحفز ، حين النف بأهل المدينة يقول لهم : ديا أهل المدينة ، أنتم أهل الشورى ، وأنتم تعقدون الإمامة ، وحكمكم جائز على الأمة ، فانظروا رجلا تنصبونه ونحن لكم تبّع ، وقد أجبناكم يومكم ، فوالله لئن لم تفرغوا لنقتلن غدا عليا وطليحة والزبير وأناسا كثيرين .

تلك زفرة اليأس التي زفرها هذا الشعب حارة تنبيه بحقد متأجج انطوت عليه الجوانح ، لو طال به الأمد لا نفجر عن شر مستطير .

وهال أهل المدينة ما صدر على لسان أهل الأمصار ، وقدروه قدره ، فزاحموا على « على » يناشدونه الله أن يقبل . ولربما كانت تروق علياً يوم أن كانت خلافة أولى بعد أكرم راحل — أعني رسول الله صلى الله عليه وسلم — ولقد كانت النفوس أصبى ما تكون لهذا الشرف العظيم الذي يناله

من يخلف رسول الله على عباد الله ، أما وقد نشحى عنها على  
بأبي بكر أولاً ، ثم بعمر ثانياً ، ثم بعثمان ثالثاً ، فما هو بالمُزاحم  
عليها . فلقد أطفأ في نفسه جذوة المزاحمة ذهابُ هؤلاء الأنداد  
الذين كان يحاول على أن يحجى في أولهم ، أما وقد ذهب أنداد  
فقد خَبَت في نفسه تلك الجذوة ، وعاد يرى الأمر تفضلاً له  
إن قبل ، وأداء حق في عُنقه للمسلمين إن أجاب .

وشئ آخر لم يغب عن فطنة « على » ، فهو لم يَغِب عليه أن  
الذى تلده الفتنة في حجر الفتنة يعيش ، ولبانها يطعم ، وبين  
ساعديها يَشْشُب ، لا تترك الفتنة حتى يترك ما وصله بها ، وقد  
لا تتركها هي وإن حاول هو أن يتركها .

لهذا قال لهم على : « دعوني واتمسوا غيري ، فإننا مستقبلون  
أمرآ له وُجوه وله ألوان ، لا تقوم به القلوب ، ولا تثبت  
عليه العقول » .

ولكن علياً يرى لنفسه ، وهم يرون للأمة ، وهو حين  
يرى لنفسه بين يدي واجب خاص ، وهم حين يرون للأمة بين  
يدي واجب عام ، وليست نفس « على » من تلك النفوس التي تُشغل

بالواجب الخاص عن الواجب العام ، وما نظن عليا قال ما قال  
ليُرد الناس عنه وليخلو هو إلى أمن الوادعين الذين يعبرون الحياة  
عن عُرْض ، ولا يدخلونها مستولين فيها ، وإنما الظن أن عليا قال  
هذا ليُبصّر الناس بما هم قادمون عليه ، وليحذّرهم الفتنة عليه ،  
وليجتمعهم معه على إخماد ما قد يثور .

لهذا ما كاد الناس يعقدون عليه الرجاء ويخوّفونه ماخافه  
عو على المسلمين ، حتى أجابهم وهو يقول : قد أجبتمكم ، واعلموا  
أنى إذ أجبتمكم ركبت بكم ما أعلم .  
ولكن الذى أراده الناس أن يمر هينا سهلا مرّ عسيرا  
معبا .

فلقد كان هينا سهلا أن تمحو ولاية على آثار تلك الفتنة  
التي أودت بعثمان ، ولقد كان هينا سهلا : أن يأخذ على يدي  
المسلمين إلى الطريق السوى ويردهم إلى أمن وطمأنينة ، ولقد  
كان هينا سهلا أن يلتزم شمل المسلمين بعد إفراق ، لو أنهم  
اجتمعوا كلهم على خلافة « على » لم يخرج عليه خارج منهم .  
ولكن الذى أزعج عثمان أزعج عليّا : ولقد استقبل عثمان

صدراً من خلافته مطمئناً ، واستقبلها على غير مطمئن ، فعثمان  
قضى عمراً في غير فتنة ، «وعلى» يوم أن حمل الخلافة حمل معها  
عبء الفتنة عليه .

يُدعى طلحة إلى بيعته فيمتنع ، فيسوقونه إلى البيعة سوقاً :  
ولا يبايع الزبير إلاّ والسيف على عنقه ، ويجهّأ بسعد بن أبي  
وقاص فيقال له : بايع . فيقول : لا ، حتى يبايع الناس . وهو  
يعلم ما تفعل كلمته في نفوس الضعفاء .

ويجيئون بابن عمر فية ولون له : بايع ، فيقول مثل ما قال  
طلحة ، ويؤمُّ الأشرار الخي أن يضرب عنقه ، فيقول على دعوه ،  
ويتجه إلى ابن عمر وقد اماناً عليه غيظاً فيقول له : إنك ما علمت  
لسمي الخلق صغيراً وكبيراً .

ويُحجم نفر من الأنصار عن بيعته ، وكلهم من المعدودين  
في قوههم نذكر منهم حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، ومسامة  
ابن مخلد ، وأبا سعيد الخدري ، وزيد بن ثابت .

وينفر النعمان بن بشير بأصابع نائلة امرأة عثمان - وكانت قد  
قطعت وهي تحمى بيدها عثمان من ضربة سيف - وقيص عثمان

الذى قتل فيه ، فيلحق معاوية بالشام .

ويلحق معاوية قتيص عثمان وفيه الأصابع يشير بذلك أهل الشام ، وإذا فتر أهل الشام وكادوا أن ينسوا انبرى عمرو بن العاص لمعاوية يقول له : حرك لها حوارها تحن . فيعود معاوية ويلحق القتيص والأصابع .

وهكذا أفسد أولو الرأي على الشعب مرة ثانية أمره ، ولم يجحوا به إلى السلم والطمأنينة .

ولن يعدم أولو الرأي أن يجدوا مع الفتنة الثانية ما وجدوه مع الفتنة الأولى ، وليس بعزير عليك أن تنلس السقطات ، وليس بعزير عليك أن تهيم للسقطات بحجة إن كنت من أصحاب الحجج ، وليس بعزير عليك أن تتخذ من ورائك شعبا تملك عاطفته قلبه في الكثير ، وقلما يملك قلبه عاطفته .

ولكن العزيز عليك أن تغمض عينيك عن القليل من الشائعات لتحمي الكثير من الصالحات ، وأن تؤمن بخير الناس إذا غلب شرهم لسيؤمن بإيمانك آخرون ، وألا تتخذ شعبا فتحمله على شيء وأنت تعرف أن الخير في غيره .

لقد قسمت الفتنة على عثمان ؛ ما في ذلك شك ، ولقد قيل في « على » وغير « على » من الصحابة كلام قد نال منهم ؛ ما في ذلك شك .

ولكنها كانت فتنة يراد منها في جوهرها تحقيق العدل والنصفة ، لم يرد الثائرون فيها قتل عثمان ، وإنما أرادوا إبعاده ، وعلى الرغم من الثائرين لهذا المعنى من الثورة جاء قتل عثمان .

وكم تسوق الأقدار ما ليس في التقدير والحسبان ، وكم يسكون الناس عونا للأقدار عليهم إن هم لم يندسوا ما جاء عن غير قصد ، مهما يبلغ شره وضرره ، وإن هم لم يعلموا أن الفتنة لن يدرك أمنها إلا بإماتها ، فإنها كالنار كلما سمرت ازدادت .

هذا و« على » لم يكن خليفة لا يرضى . ولقد سعى الناس ليلهم خليفة يرضى .

ولو أريد الخير بالمسلمين ، وأريد لهم ألا يذوقوا بفتنة عثمان فتنا متصلة ، انظروا إلى ما كان نظرة مجردة عن غرض أولاً ، ثم نظرة المؤمن إلى قضاء الله لا يصله بما يزيد شراً

وضمرا ، ولنظروا إلى عليّ ، عليّ أنه من خيرهم فأعانوه .  
ولكن الأمر كان كما رآه عليّ ، فتنة أتته بخض عن فتنة ،  
وكان عليماً بنفوس من حوله من سرائرهم ، وما أصدقه  
حين يقول :

ولو أن قومي طاوعتني سرائرهم  
أمرتهم أمراً يُدخِلُ الأعداء



وكما تحرك الشعب على عثمان بسبب ، تحرك الشعب على « علي » بسبب ، وقد وجد مشيرو الخلاف مع عثمان سببا ، ولم يعدموا أن يجدوا مع علي سببا . وكانت الفتنة هنا كما كانت هناك لها ظاهر وباطن :

أما ظاهرها فكان ما عليه الشعب البريء ، يصبه في روعه المهيئون للفتنة ، وما عليهم إلا أن يزخرفوا له القول ، وهو المخدوع بزخرف القول؛ إذ هو أسرع إلى وجدانه وآبى على عقله ، وما عليهم إلا أن يعددو ويسرفوا في الوعد والآمانى ، وما من أمة دخلت ولا أمة مستحقة إلا وفيها هؤلاء الذين يعيشون لأمانهم ، سعدت الأمة أو شقيت .

وهكذا ثار الشعب على « علي » ، يتهمه بالتفريط في عقاب قتلة عثمان ، ويكاد يتهمه على هذا التفريط تهمة المشاركة المحرض . وإنها الكبيرة على نفس الشعب الذى يعرف علما حق معرفته أن يعرفه على هذه الصورة المزيّفة .



وإنها لكبيرة على نفس الشعب أن يؤمن بها ولا يُهب  
للضرب على يد فاعلها .

تلك كانت الثورة الظاهرة على عليّ . حُرِّك لها الشعب كما  
حُرِّك للفتنة على عثمان .

\*\*\*

واسكن الثورة الباطنة كانت ثورة البيت المغلوب ؛ بيت  
بنى أمية ، على البيت الغالب ؛ بيت بنى هاشم .

تُعِينها ثورة أخرى باطنة كانت ثورة نَفَر من الناقمين على عليّ ،  
وما كان عليّ « بمستطيع أن يُطهر نفوس الناس كافة من حقد خليه .

وما أحب أن أذكر لعائشة قولها لمن أنهى إليها مقتل عثمان  
واجتماع الناس على بيعة عليّ : لست هذه انطبقت على هذه إن تم

أمر لصاحبك ، رُدّوني . ردوني ، وانصرفت إلى مكة وهي تقول :  
قُتِلَ والله عثمان مظلوما ، والله لأطلبن بدمه .

وما أحب أن أذكر قدوم طلحة والزبير إليها ، فتقول لهما :  
ما وراءكما ؟ فيقولان : إِنَّا نَحْمِلُنَا هَرَبًا مِنَ الْمَدِينَةِ مِنْ غَوْغَاءَ ، وَفَارَقْنَا  
قَوْمًا حَيَارَى لَا يَعْرِفُونَ حَقًّا ، وَلَا يَنْكُرُونَ بَاطِلًا ، وَلَا يَمْنَعُونَ أَنْفُسَهُمْ .

ما أحب أن أذكر هذا أو ذاك ولكني أحب أن أذكر لك أنه حين خرجت عائشة ومن معها من مكة جاء مروان بن الحبحم حتى وقف على طلحة والزبير فقال: على أيكما أسأتم بالإمرة وأؤذن بالصلاة؟... فيقول عبد الله بن الزبير: على أبي عبد الله - يعني أباه الزبير - ويقول محمد بن طلحة: على أبي محمد - يعني أباه: طلحة .

أذكر لك هذا لأصلك بهذا السبب الباطن للثورة الذي حدثت لك عنه ، وأن هذا السبب الباطن كان يشير السبب الظاهر الذي تحرك له الشعب المقاتل مخدوعا .

\* \* \*

ويلتقي « على » وجيشه بعائشة وجيشها ، فإذا بينهما وقعة الجمل . وما أمرها على النفس أن تخوض فيها ، وما أشقها على اللسان أن يتحرك بها ، ثم ما أعصى القلم أن يمتضى في سردها . وحسبك أن تعرف أنها تركت من الفريقين جرحى لا يُحصون ، وقتلى يعدون بالمئات ... قُتل فيها طلحة ، وقتل فيها الزبير ، وكادت أم المؤمنين عائشة أن يُصيها مكرهه .

\* \* \*

ومرت هذه الفتنة الأولى الباطنة لتهيء لفتنة ثانية باطنة أشد من هذه عمقا وأبعد منها غورا ، وهى الفتنة التى مهد لها معاوية فى الشام ، كذا الطمأنوا حرك لهم حُورهم بقميص عثمان وأصابع نائلة . وعفا الله عن عمرو بن العاص : فبمثلله رزقت هذه الفتنة من يؤرث لها ويذكىها ، فلقد كان يكره عليّا حقا .

يحكون عنه أنه لما بلغه قتل عثمان سمعوه يقول : إن يل هذا الأمر طلحة فهو قى العرب ، وإن يله ابن أبى طالب فهو أكره من يليه إلى .

وما نلوم عمرًا فى كراهيته لعلی ، فالقلوب تحب وتكره ، وما نكلفها فوق طاقتها ، ولكننا نلومه حين يكره العمل الصالح لأنه يكره صاحبه ، ويرد عن الحق صاحبه لأنه له كاره .

\*\*\*

وما إن تتحقق الولاية لعلی حتى يحقد عليه ويتربص به الدوائر ، ويأتيه نبال وقعة الجبل وما كان من نصر لعلی فيها فيضطرب عليه أمره ، وينظر يئنة ويسرة عمن هو عدو لعلی مثله ، فيسمع أن معاوية بالشام لا يبايع لعلی ، وأنه يُسمى ويصبح على النار منه .

فيدعو عمروُ إليه ابنيه : عبد الله ومحمدا ، يستشيرهما ،  
ويقول : ما تريان ؟ ... أما علي ، فلا خير عنده ، وهو غير مُشركي  
في شيء من أمره ؟

فيقول له ابنه عبد الله — وكان يرى للناس لا لآبيه — : تُروني  
النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وهم عنك راضون ،  
فأرى أن تكف يدك وتجلس في بيتك حتى يجتمع الناس على  
إمام فتبايعه .

ويقول له ابنه محمد — وكان غير أخيه ، يرى لآبيه قبل أن  
يرى للناس — : أنت نأب من أنياب العرب ، ولا أرى أن يجتمع  
هذا الأمر وليس لك فيه .

ويعرف عمرو في قول ابنيه : ما هو خير له في دينه ، ثم ما هو  
خير له في دنياه ، فيؤثر ما لدنياه على ما لدينه ، ويقول لابنيه :  
أما أنت يا عبد الله فأمرتني بما هو خير لي في آخرتي وأسلم  
في ديني ، وأما أنت يا محمد فأمرتني بما هو خير لي في دنياي  
وشر لي في آخرتي .

يؤمن بهذا وذاك عمرو ، ولكن حب الدنيا يغلبه على

الآخرة، وحُب الخير لنفسه يغلبه على حب الخير للناس، وإذا هو خارج إلى معاوية فقادماً عليه، وإذا الناس من حول معاوية يحضونه على الثأر لعثمان، فيشتم عمرو نفسه بينهم ويرفع صوته ليُسمع معاوية: أنتم على الحق، اطلبوا بدم الخليفة المظلوم .  
ومعاوية لا يلتفت إليه، ويلتفت له ابنه محمد — الذى أغرتة الدنيا كما أغرت أباه — فيقول: ألا ترى معاوية لا يلتفت إليك .  
انصرف إلى غيره .

ولو وجد عمرو غير معاوية ما ترك قول ابنه وما حاد عنه .  
ولكن عمراً عربى يعرف الخصومة الأولى بين بنى أمية وبنى هاشم، ويعرف أن رجل هذه الخصومة اليوم هو معاوية، ويعرف أنه إن أخفق فى إثارة معاوية على عليّ فلن يفلح فى إثارة غيره، ويعرف أن معاوية غير راجع وإن بدا عنه منصرفاً .

ويدخل عمرو على معاوية فيقول: أما والله إن قاتلنا معك نطلب بدم الخليفة إن فى النفس ما فيها حيث نقاتل من تعلم سابقته وفضله وقرابته، ولكننا إنما أردنا هذه الدنيا .

أرأيت معى كيف أسرَّ الثائرون بعلى من أولى الرأى  
أمرأ وأعلنوا للناس غيره ، وكما بغاها معاوية لديناه بغاها من  
التفُّ حوله لديناهم ، يضمهم إلى معاوية إما السكراهية لعلى ،  
ولما جاء الدنيا الذى أغراهم به معاوية ؟ ا .

ومن وراء هؤلاء شعب ضلَّ عنه الحق ودخل عليه الباطل .  
وحسب هذا الشعب أن يجد كُلمها مر بالمنبر قيصاً مخضوباً  
بدم عثمان وأصابع زوجته نائلة : لإصبعين منها ، وشيئاً من  
الكفِّ ، وإصبعين مقطوعتين من أصليهما ، ونصف الإبهام ،  
والأجناد من حول هذا وذاك سيكون .

عندها لا تستكثر على رجال من أهل الشام أن يقسموا ألاّ  
يمس الماء جسودهم ، وألاّ يناموا على فراش حتى يقتلوا قتلة  
عثمان ، ومن قام دونهم قتلوه .

\*\*\*

تلك هى حقيقة تلك الثورة ، يؤمن فيها القادة برأى ، ويؤمن  
فيها الشعب برأى ، وعلىَّ تجاه هؤلاء وهؤلاء يدفع الدافعين للثورة  
بحجة ، ويدفع المدفوعين للثورة بحجة .

ولكن الدافعين كانوا ذوى أطماع دنيوية تُصم وتُعمى ،  
 وكان المدفوعين إلى الثورة ذوى وجدان قد ثاروا ثورة لا تردها  
 إلا ثورة مثلها ، وكما هاج معاوية ناس هاج لعلى ناس ، وكانت  
 حرب أصاب السادة منها بأسٌ قليل ، وأصاب الشعب منها بأس  
 كبير . واستعصى التوفيق على الموفقين ، وعي الناسُ بأمرهم  
 وضاقوا به ذرعا .

فإذا ثلاثة من الخوارج هم : عبد الرحمن بن مُلجَم المرادى ،  
 والبرك بن عبد الله التيمى الصريمى ، وعمرو بن بكر التيمى السعدى  
 يبيسون الرأى على قتل على ومعاوية وعمرو ، فينجو معاوية ،  
 وينجو عمرو ، ويذهب على مقتولا بيد ابن مُلجَم .

وهكذا يقضى علىّ بين يدي فتن ثلاث :

فتنة قديمة تمتد أصولها إلى الجاهلية الأولى حملها البيتان  
الأموي والهاشمي متنافسين فيها على الجاه والسلطان .

وفتنة حملها أندادُ عليّ منافسون له أو ناقون عليه .

وفتنة حملها فريق من الشعب ليرد ظُلمها ويُقيم عدلا .

وفرق بين موقف هذا الشعب في هذه الفتنة وبين موقفه

في الفتنة على عثمان ، فقد كانت ثورته على عثمان باسم الحق

العام الذي للشعب على الخليفة ، كانت ثورة مجردة عن غرض

ذاتي ، همها الخلاص من عثمان ، وما كان همها الدعوة لغيره ، وهي

لهذا ما كادت تبلغ هدفها حتى ارتدت تفكر فيمن يلي ليرد

الأمور أمنا وسلاما كما كانت .

ولكن ثورة الشعب على عليّ كانت أضيق غرضا ، وكانت

ذات لون طائفي ، وانقسم الناس فيها يمنا ويسرة لا تعلقا بالأراء ؛

ولكن تعلقا بالأشخاص ، وإذا هم عثمانيون وعلويون ، أو قل



أمويون وهاشميون .

وهكذا اتسع ما بين الأمويين والهاشميين من خلاف حتى انتظم الناس معهم ، فلقد عاش الأمويون والهاشميون والخلاف بينهم لا يعدوهم إلى غيرهم ، يحقد الأموي على الهاشمي ، ويحتاط الهاشمي من الأموي ، والناس من حولهم لا يشاركون في شيء من ذلك . ثم إذا هم قد لفؤوا الشعب كله في حبائهم ، لا يرضيهم أن تعيش الفتنة قاصرة عليهم ؛ بل أرادوها عامة تعم الجميع .

وفرق بين حياتين : حياة جاهلية يعيش الناس فيها قبائل لكل قبيلة نظامها ، وحياة متحضرة تجمع ما بين الناس جميعا على نظام واحد ، كادت القبائل تذوب فيه بكل ما لها ، اللهم إلا أواصر قرى ووشائج نسب .

من أجل هذا لم يستطع الأمويون والهاشميون أن يدخلوا هذه الحرب الجديدة إلا إذا جمعوا هذا الشعب إليهم ، فكسب هؤلاء فريقا ، وكسب هؤلاء فريقا ، وباتت وحدة الشعب التي لقد الإسلام عقدتها فئرة قاسية يهيء لها ميادينها الأمويون والهاشميون ، ويحرض الناس عليها المغرضون والمتنفعون ،

والمبغضون والحاسدون ، ويصلى ناراها الشعب المتخبون .  
وكما أثار قتلُ عثمان الأمويين يجعلون منه سببهم للانتصاف  
من الهاشمين ؛ أثار الهاشمين قتلُ علي ، يجعلون منه سببهم للشار  
من الأمويين .

ولكن عثمان قُتل وكان وراءه داهية استطاع أن يجمع إليه  
الناس بالحيلة والدهاء ، وقُتل علي فلم يخلفه علي بنى هاشم من هو  
مثل معاوية دهاء وسعة حيلة .

وعاش معاوية ومضى علي ، فخلا لمعاوية الميدان ، لهذا قامت  
للأمويين دولة واختفى بنو هاشم يتجرعونها غصصا إلى حين .

وكان أنصار معاوية بالشام تجمع بينهم الطاعة ، وشيعة علي بالكوفة يفرق بينهم الرأي ، لذلك كان معاوية قويا بمن معه ، وعلى ضعيفا بمن انضم إليه ، ولقد كان الحسن بن علي قادراً أن يقف بمن معه من جنود أبيه -- وقد بلغوا أربعين ألفاً -- في وجه معاوية ، وقد يكتب له النصر ، ولكنه ما إن تحرك للقاء معاوية بهذا الجيش الكثيف -- وعلى مقـدمته قيس بن سعد -- وبلغ المدائن ونادى مناد في العسكر بأن قيس بن سعد قد قتل ، حتى تفرق العسكر شذر مذر ، لا يفترون فرار الجبابرة فحسب ؛ ولكنهم قبل أن يفتروا يزيدون إلى نـسكر الفرار نكراً أشد وأدهى ، فيعرجون على سراق «الحسن» لينهبوه ويحرقوه بما فيه ، وكانهم قد عز عليهم أن يتركوا له بساطاً تحته ، فنازعوه إياه .

\* \* \*

فلا لوم على الحسن بعد هذه أن يكتب لمعاوية في الصلح ، ولا لوم على الحسن بعد هذه أن يقضى برأيه ويعدل عن رأى

أخيه الحسين ، وكان الحسين ناشده الله ألاّ يشق بقول معاوية .  
وكما كان أهل الكوفة مع أبيه خلافاً وعناداً كانوا معه خلافاً  
وعناداً وقلة رغبة في القتال ، فهم الذين ترددوا أولاً في بيعته  
حين شرط عليهم أن يُسلموا من سالم ويحاربوا من حارب  
يقولون : ما هذا لنا بصاحب ، وما يريد إلا القتال .

وهم الذين حين صالح الحسن معاوية ، وكتب إلى قيس بن سعد  
بأمره بالدخول في طاعة معاوية ، وقام قيس يقول لهم : « أيها الناس  
أختارون الدخول في طاعة إمام ضلالة أو القتال مع غير إمام ؟  
قالوا : بل نختار الدخول في طاعة إمام ضلالة ، وبايعوا معاوية .  
وما أصدق الحسن حين قيل له : ما حملك على ما فعلت ؟ ...  
قال : رأيت أهل الكوفة قوماً لا يشق بهم أحد أبداً إلا مُغلب ،  
ليس أحد منهم يوافق آخر في رأى ولا هوى ، مُختلفين لانيّة  
لهم في خير ولا شر .

\*\*\*

وهكذا خرج الحسن من الخلافة بعد أن أحسّ أنه لا جند  
معه ، واستقر معاوية في الخلافة بعد أن أحسّ أنه عزيز بُجنده ،

يَأْمُرُ فَيَأْتِمُرُونَ ، وَيَدْعُو فَيُطِيعُونَ ، وَمَضَى يُثَبَّتْ لِمَا كُنْهَ ،  
يُقَرَّبُ إِلَيْهِ مِنْ يَنْصَرُ وَيُعِينُ ، وَيُنَزِّلُ كُلَّ بَشَرٍ مِنْ تَسْوَلٍ لَهُ  
نَفْسُهُ الْخُرُوجَ عَلَيْهِ أَوْ النَّيْلَ مِنْ سُلْطَانِهِ ، لَا يَغْتَبَأُ بِأَيِّ رَأْسٍ  
يُطِيعُ بِهِ لِمَنْ يَكُونُ .

وكما كان قَتْل « علي » ترجيحاً لكفة معاوية وإخلاء  
 للميدان أمامه من مُنافس قوى ، كذلك كان موت « معاوية » ،  
 ترجيحاً لكفة « الحسين » وإخلاء للميدان أمامه من مُنافس  
 قوى ، لو أنه رزق عُدة من جُند صادقين مُخلصين مُطيعين .  
 فما أعطى بنو هاشم إلا عن يديهم صاغرون ، أعطى  
 « الحسن » ، « معاوية » في الخلافة حقّه ، لأنه وجد نفسه لا يناصره  
 عليها إلاّ أهله بالرأى والدّعوات ، وقد أفلت جنده منه وكادوا  
 يَسْتَقْضُونَ عليه .

وسكت الهاشميون بعد نزول « الحسن » عما نزل عنه لأنهم  
 رأوا أنفسهم مغلوبين ، ورأوا بنى أمية غالبين ، ومات « معاوية » ،  
 فأصبح الحسين — وهو ابن « علي » — ندا ، أو أبعد من ند ،  
 لـ « يزيد » ، وهو ابن « معاوية » .

وما نزل « الحسين » عن حقّه ، ولكن نزل « الحسن » ، وهو  
 قد ترك دُنْيا الناس للناس منذ عشرة أعوام ، فأنتفتح الباب أمام

« الحسين ، لِيُطالَب بما شاء دون أن يقف في سبيله أخوه  
« الحسن ، بنزوله عن حقه .

أحس ذلك بنو أمية وعلى رأسهم يزيد بن معاوية ، وأحس  
ذلك بنو هاشم ، وعلى رأسهم « الحسين » بشيخته . فأما « يزيد »  
فقد أرسل لعماله على المدينة « الوليد بن عتبة بن أبي سفيان »  
بأمره أن يأخذ « الحسين » بالبيعة أخذاً ليس فيه رخصة حتى  
يبايع .

ويدعو « الوليد » « الحسين » إليه يطلب منه أن يبايع ،  
ويقطن « الحسين » إلى ما يراد عليه من أخذه على غرة ، فيقول  
للوليد : مثل لا يُبايع سرّاً ولا يُجْزأ بها مني سرّاً ، فإذا  
خرجت إلى الناس ودعوتهم للبيعة ودعوتنا معهم كان الأمر  
واحداً .

يريد « الحسين » بذلك أن يعمل نفسه فلا يُسرع فيعطى  
ما يندم عليه بعد ، ويريد أن يعمل نفسه فلا يُسرع فيرفض  
ما قد يحزرّ عليه سرّاً ، لأنه لم يكن قد أخبر بعد ما عند أصحابه  
وعزمهم على نصره واستعدادهم لخوض المعركة معه .

وقد فطن مروان بن الحكم — وكان حاضرها — إلى ما في  
إجابة الحسين من تدبير ، وما وراها من أهبة ، فنظر إلى  
« الوليد بن عتبة » يقول : لئن فارقت الساعة ولم يبايع لا قدرت ثانية  
على مثلها أبدا حتى تسكر القتلى بينكم وبينه ، أحبسه فإن بايع وإلا  
ضربت عنقه .

مُثلِك — ومروان أحد المنتفعين به — يملى عليه ، لا يبالى  
في سبيله أية خطة يركب ، ولا أى ظلم يقترب ، ولا أى عدوان  
يأتى ، لا تدفعه عن ذلك رحمة عباد الله ، ولا التفاتاته إلى  
ما رسم الإسلام من حماية الأنفس والحقوق .

ولئن كان « مروان » تغلبه دنياه على دينه ، فلقد كان الوليد  
ابن عتبة ، يغلبه دينه على دنياه ؛ ولقد كان كلاهما أمويا .

ولكن « مروان » كان أمويا قد أنسته أمويته كل شيء ؛ حتى  
دينه . وكان « الوليد » أمويا ذكر إلى جانب أمويته دينه ؛  
لذا كان « مروان » يملى عن أمويته لحسب ، وكان « الوليد »  
يملى عن أمويته ودينه معا ، وكان « مروان » لا يخاف أخراه  
بقدر ما يخاف دنياه ، فلا عليه إن مضى من دنياه بحظه موفورا كما



يحب ، وليكن في الآخرة ما يكون .

ولكن « الوليد ابن عتبة » يخاف أخراها أكثر مما يخاف ديناه  
فلبعض من ديناه بأقلّ حَظّ ليلقى آخرته بأكثر حظ ؛ لهذا  
اتجه إلى « مروان » . بعد مخرج « الحسين » عنهما غاضبا - وهو  
يقول له : « ويح غيرك يا مروان ، والله ما أحب أن لي ما طاعت  
عليه الشمس وغربت عنه من مال الدنيا وملكتها وأنى قتلت  
« الحسين » أن قال : لا أبايع ، والله إنى لأظن أن امرأ يحاسب  
بدم « الحسين » تخفيف الميزان عند الله يوم القيامة .

ويستخزي « مروان » لكلام « الوليد » ، فما كان  
يظنه - وهو أموى مثله - يبدسه بهذا القول المخرج . والمبطلون  
أسرع الناس انكسارا بين يدي الأقوياء بالحق ، وأسرع الناس  
تكوصا حين تلزمهم الحاجة ، إذ الباطل ضعيف وإن بدا به أهله  
أقوياء ، فإن وجدوا من الناس انصياعا لهم واستسلاما آمنوا  
يزيدون ، وإن وجدوا الناس على غير الانصياع والاستسلام  
ارتدوا أضعف ما يكونون ، وقد تؤمن منهم الألسنة والقلوب ،  
وعندها لا يرتدّون ، وقد تؤمن منهم الألسنة دون القلوب ، وهم

المخادعون . وكذلك كان « مروان » ؛ آمن بما قال « الوليد »  
لساننا لا قلبا ، وكان من المخادعين ، فالتفت إلى ابن عتبة ، يقول له :  
إن كان هذا رأيك فقد أصبت ا يقول له هذا وهو غير حامد  
له على رأيه .



وخرج « الحسين من المدينة يتبعه بنوه وإخوته وبنو أخيه ،  
لم يتخلف منهم إلا أخوه « محمد بن الحنفية » . ولقد كان « محمد »  
يرى الحق لأخيه ، ويرى الخوف على أخيه ، وهو لهذا أحب له  
أن يسعى ، وأحب له أن يحتاط وهو يسعى ؛ لم يصرفه عن هذا  
الحق لأنه كان يؤمن به معه ؛ بل شجعه عليه ؛ ولكنه كان  
أخبراً بأهواء الناس ، دلّوه عليها بموقفهم من أبيه « على » ،  
ودلّوه عليها بموقفهم من أخيه « الحسن » . فجمع لأخيه بين  
تشجيعه له وخوفه عليه في هذا الكلام الذي نحرص أن  
نسوقه لك ، فاستمع إليه يقول لأخيه « الحسين » : « يا أخى ،  
« أنت أحب الناس إلى وأعزهم على ، واستأذن نصيحة لأحد  
من الخلق أحقّ بها منك . ابعد رسلك إلى الناس وادعهم إلى  
نفسك ، فإن بايعوا لك كان ما تحب ، وإن أجمع الناس على غيرك  
لم ينقص الله بذلك دينك ولا عقلك . إني أخاف أن تأتي نفراً  
أو جماعة من الناس فيختلفوا عليك ، منهم طائفة معك وأخرى

عليك، فيقتتلون، فتكون لأول الأسنّة ، فإذا خير هذه  
 الأمة كلها — نفساً وأباً وأماً — أضعفها دماً وأذلّها أهلاً .  
 رأيت إلى « محمد - كيف دفع إلى الحق ومنع منه ، يدفع  
 إليه دفع المؤمن به ، ويمنع منه منع المشفق الخائف على أخيه .  
 ولكن « الحسين » كان قد اعتزم أمراً لا يريد الرجوع عنه ،  
 يغلب إيمانه به خوفه من عواقبه .

وما نعيم على « الحسين » خروجه على « يزيد » يبغي حقاً  
 يراد له ، وما نعيم على « يزيد » تمسكه بحق سيق إليه ؛ ولكننا  
 نعيم على هذا الشعب الذي اختلفت كلمته فلم يعرف كيف يجمعها ،  
 ووقف حائراً يفسّر رق هواه بين « الحسين » و « يزيد » ، ولقد  
 ذاق جزاء حيرته تلك شراً كبيراً ، ما كان أغناه عنه لو اجتمعت  
 له كلمته ؛ وأذاق « الحسين » شراً كبيراً ، ما كان أنجاه منه  
 لو كانت له كلمته ، وما نظن « يزيد » إلا ذاق هو الآخر  
 همّاً متصلاً ونصباً .

ولكن هذا الشعب لم يعرف هذه الكلمة الموحدة التي له  
 فيحرص عليها ، فلقد تعلمها في اختيار « أبي بكر » ، ثم كان

قريباً منها في اختيار « عمر » ، ثم تمثلها مطبقة في أضيق حدودها في اختيار « عثمان » ، ثم هم أن يردّها إليه كاملة في ثورته على « عثمان » ، ثم أملاها مرتجلة في اختيار « علي » ، ثم ردتها عنها الفتنة بين « علي » و « معاوية » ردّاً عنيفاً ، فإذا هو لا يعرف كلمته التي له ، وتفرق لا يدري أين يجتمع حول « الحسين » انصبه وفضله وقدره ، أم يجتمع حول « يزيد » لماله وجاهه وإغرائه وقهره .

ولو قدر لهذا الشعب أن يوجد الوجود القوي الموحد الذي أراده له الإسلام ، لأمل في تلك الخصومات بالرأى الحاسم ، ولقطع دابر تلك الفتن ، ولأراح نفسه من عناء كثير .



وخرج « الحسين » من المدينة يقصد قصد مكة ، فيلقاه عبد الله بن مطيع ، فيقول له : جعلت فداك ، أين تريد ؟ فيقول الحسين : « أما الآن فمكة ، وأما بعد فإني أستخير الله » .

وكأنى بالحسين لم يكن قد دبّر الأمر قبل خروجه عن  
المدينة ، وإنما هو قد أجاب « الوليد بن عتبة » بما أجاب ،  
وسمع من « مروان بن الحكم » ما سمع ، فأوجس في نفسه شراً ،  
وقد انطوت نفسه على أمل ، فترك حيث يخاف إلى حيث يأمن ،  
وخرج ينشد أنصاره على حقّه ، بعيداً عن ملاحقة « الوليد  
ابن عتبة » له ، وقد فعل ، وبعيداً عن ائتمار « مروان » به ،  
وقد يفعل .

\* \* \*

ولقد كان في مكة خارج آخر على بيعة «يزيد» له خطره ،  
ولقد حاثها هو الآخر هاربا من المدينة ، هو : «ابن الزبير» .  
وفي مكة لقي «الحسين» «ابن الزبير» واستمع إليه يشير عليه  
بالرأى . ولكننا لم نعلم أنهما اجتمعا على جهد موحد وهما بين  
يدى غرض واحد .

كما قد خالف «الحسين» و «ابن الزبير» خارجا ثالثا على  
بيعة «يزيد» أيضا ، وله هو الآخر خطره ، هو «ابن عمر» .  
ولكننا لم نعلم أن «الحسين» و «ابن الزبير» اجتمعا معه على  
جهد موحد ، وهم ثلاثتهم بين يدى غرض واحد .

غير أننا نعلم أن كل واحد منهم كان يبغيها لنفسه ، أسر ذلك  
أو جهر به ، ولهذا لم نعلم لهم هذا الجهد الموحد .  
ولو أن الشعب عرف كلمته التي له - كما قلنا - لوفر على هؤلاء  
السادة هذه البلبلة الفكرية ، ولردهم إلى كلمة سواء ، ولكنني نفسي  
مؤونة الخوض مع بعضهم معارك دامية حمل هو فيها العبء الأكبر .

وشيعه « الحسين » الذين عليهم معتمده ، هم في السكوفة ،  
 ليسوا من بين أهل مكة ، وليسوا من بين أهل المدينة . وحين  
 بلغهم موت « معاوية » ، ثم امتناع « الحسين » ، ومعه  
 « ابن الزبير » و « ابن عمر » عن البيعة لـ « يزيد » تنهبوا لما  
 يجب عليهم نحو من شايعوه وتشيعوا له ، ولقد استكانوا  
 حكم « معاوية » كله ، بعد أن سلم « الحسن » الأمر لمعاوية ،  
 فسلموا هم الآخرون الأمر لمعاوية ، على اختلاف في التسليم ،  
 فلقى سلم « الحسن » عن يأس وقنوط ، وسلخواهم عن  
 ونيّ وفترة .

وعندى أن الشيعة الذين اجتمعوا حول « الحسن » في يومهم  
 الأول ، ثم ختلوه في يومهم الثاني ، والذين وصفهم « الحسن »  
 حين خطبهم ينهى عليهم هذا فقال لهم : « كنتم » في سيركم إلى  
 صفين ، ودينكم أمام دنياكم ، وأصبحتم اليوم ودنياكم  
 أمام دينكم .



نعم ، عندى أن أنصار « الحسن » بالأمس كانوا غير أنصار  
 « الحسين » اليوم ، والبيئة التى أنبتت أولئك هى البيئة التى أنبتت  
 هؤلاء ، والرأى الذى حرك السابقين هو الرأى الذى انتظم  
 اللاحقين ، ولكن شيئاً واحداً هو الذى خالف بين هؤلاء  
 وهؤلاء ، فأنصار « الحسن » كانوا قد خرجوا من حرب  
 مضنية مهلكة خاضوها مع « على » وهو يحارب « معاوية » ،  
 وكانوا قد شوّس عليهم أفكارهم ، وببلل فيهم خواطرهم حُكم  
 الحكماء : « عمرو بن العاص ، وأبى موسى الأشعرى » ، وكانوا  
 قد أفسد عليهم عقولهم ما خرج به الخوارج من آراء .

فلما أن سلم « الحسن » خلصوا إلى أنفسهم يلومونها على  
 ما فرطت فى جنبه ، ووادعتهم الحياة نحواً من عشرين عاماً لم  
 ينضمّهم ميدان الحرب ، ولكن ضمّتهم ميادين الكلام ،  
 بنضوا فيها عن أفكارهم ما كان يشوشها ، وعن خواطرهم ما كان  
 يبلبلها ، وعن عقولهم ما كان يزلزلها ، فإذا هم قد عادت لهم  
 قوة البدن ، وقوة الرأى والعقل ، وإذا هم على أول الطريق  
 يرقبون الداعى .

وكأنى بالحسين قد بان له هذا فخرج يطلب حقه ، وكأنى به لم يشجع على هذا الخروج إلا حين رأى تلك المعانى وآمن بها وبغيرها ، فما كان بعيداً عما فعله هؤلاء الشيعة بأبيه ، وما كان بعيداً عما فعلوه بأخيه ، وما كان هو غير بصير لا ينظر للأمر من وجوهه ، وما كان طامعاً قد غمى الطمع على بصيرته فسلبه الحذر وأسلبه إلى الغرور .

و « الحسين » بعد هذا كله كان مؤمناً بحق بيته الإيمانه كله ، وكان على إيمانه به حريصاً عليه لا يرى التفريط فيه ، رغب أو هدد ، وهو لهذا قد وقف لأخيه « الحسن » — حين ألانه قبول « معاوية » شروطه ، يجادله ألا يفعل وهو يقول له : أنشدك الله ألا تصدق أحدوثة معاوية وتكذب أحدوثة أبيك .

فيرد عليه « الحسن » هذا الرد الذى لا جواب معه : « اسكت أنا أعلم بالامر منك » .

ورد أحسن فيه « الحسن » ، أنه الأكبر فأجاب ناهياً ، ورد أحسن فيه « الحسن » ، أنه خبر الأمور فقال قاطعاً .

وسكت « الحسين » ، لأن الحق كان لأخيه وليس له أن

يُزحزحه عنه ، ولأن أخاه لم يرد أن يسمع فيما عزم عليه نصحا .

وسكت « الحسين » حياة أخيه لأنه لم يكن يملك غير السكوت ، وسكت « الحسين » عشر سنين أخرى بعد وفاة أخيه لأن « معاوية » كان أقوى من أن ينازع وكان أنصاره هو لم تستقم لهم أمورهم .

وهكذا خرج « الحسين » من مكة يطلب حقه حين تهيأت له هذه الأسباب كلها ، ولم يشأ أن تغفل منه .

وكانت الأسباب التي تهيأت للحسين هي الأسباب التي تهيأت لأنصاره ؛ فلقد مات « الحسن » رضى الله عنه ، وما كان لهم أن يتحركوا في حياته ، ولقد مات « معاوية » — رحمه الله — وكان من كان سطوة عليهم وجبروتا ، ولقد تحرك « الحسين » وما كان أرقبهم لهذا الخروج وأشدّ تلهّفهم إليه . ولقد ولى « يزيد » والناس عليه مختلفون ، فما أحيانها فرصة للإرجاف به لينصروا « الحسين » ويخذلوه .

\* \* \*

لهذا اجتمعت الشيعة في منزل كبير لهم هو « سليمان بن صرد الخزاعي » ، وكتبوا إلى « الحسين » هذا الكتاب الخالد لهم وعليهم ، والذي لا يدع مجالا للحسين أن يتلبث أو أن يترث ، يقولون فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، سلام عليك ، فإننا نحمد إليك الله  
الذى لا إله إلا هو .

أما بعد . فالحمد لله الذى قصم خدوك الجبار العنيد ، الذى  
افترى على هذه الأمة فابتزها أمرها ، وغصبها فسيها .  
وتأمّر عليها بغير رضى منها ، ثم قتل خيارها ، واستبقى  
شرارها

وإنه ليس علينا إمام فأقبل لعّل الله أن يجمعنا بك على  
الحق ، والنّسعيان بن بشير في قصر الإمارة؛ لسنا نجتمع معه  
في جماعة ولا عهد ، ولو باغنا إقبالك إلينا أخرجناه حتى  
نأيققه بالشام إن شاء الله تعالى . والسلام عليك ورحمة الله  
وبركاته .

\*\*\*

كفّر بعاوية وبمن ولد ، وإيمان بالحُسين معه إيمان  
بقوتهم على أنهم قادرون ، لا يمنعونهم أن يظهروا على عدوهم  
إلا أن يجدوا من يجتمعوا عليه ، ولقد صوّروا له واليهم  
شخصاً لا نفّس فيه ولا ضمير منه ؛ إن شاموا أبغوا عليه ، وإن

شَاؤُوا نَفْسُوهُ عَنْهُمْ .

ولقد شفَعُوا هذا الكتاب بكتاب آخر ، ففعل الواثق  
تفَرَّجَ له الساعات عن سائحات تَسْعِجِلُ به وتَدْفَعُه إلى مزيد  
من الإقدام ، ثم عن حَذَرٍ مَعِجِلٍ به هو الآخر ، وَيَدْفَعُه  
إلى مزيد من الإسراع .

من أجل هذا وذلك لم تُمَهِّلِ الشيعة « الحسين » حتى يصل  
كتابهم إليه ، ولم يُمَهِّلُوا أَنْفُسَهُمْ حتى يصل جواب « الحسين »  
إليهم ، وسيَتَرَوُا بعد ليلتين رسولاً لهم ثانياً بكتاب لهم ثانٍ إلى  
« الحسين » ، يذكر المؤرخون أن صفحاته بلغت الحُسَيْنِ  
بعد المائة .

وفي يقيني أن هذه الصفحات التي جاوزت المائة بخمسين لم  
تسكن كلاماً كلها ، فما في ليلتين يستطيعون أن يجبروا هذا  
الكتاب ، ولا بعد ليلتين من كتابهم الأول يكونون قد أدركهم  
هذا الفيض من الرأي لتتلى به هذه الصفحات .

وإنما الذي أكاد أجزم به أن كتابهم الأول إلى « الحسين »  
أَمْضَاهُ نفر منهم قليلون ، وكان أن حَذَرُوا أن يظن « الحسين »

أن ناصريه قليلة ، وأن الداعين له عدد مَعْدود ، وما أخرى  
« الحسين » أن يصدق ، وما أحراهم هم أن يشكوا  
في أنفسهم ؛ لهذا حَبَبُوا لهذا الكتاب الثاني يذكرون فيه ،  
مع كلمة كانت لا شك قصيرة . وكانت لا شك في معنى الكلمة  
الأولى ، يذكرون فيه أسماءهم اسماً اسماً ، وبهذا وحده ماثراً  
تلك الصفحات التي بلغت مائة وخمسين صفحة ، أسماء الجلة  
القوم ومشهورينهم .

هذا الحذر هو الذي يجلب بهم فبادروا إلى إرسال كتابهم  
الثاني إلى « الحسين » بعد ليلتين من كتابهم الأول ، ليمثلوه يقيناً ،  
وليضمنوا خروجه إليهم .

وهكذا بدأ الشيعة يسبقون « الحسين » إلى الثورة ، بعد  
أن سبقهم هو إليها . وهم حين فعلوا ما عليهم ووثقوه أصبحوا  
حريصين عليه متلهمين إليه ، من أجل ذلك لم يحتزوا بما كان  
أولاً وما كان ثانياً ؛ بل أرسلوا رسولا ثالثاً إلى « الحسين »  
بمخشونه على المسير إليهم .

أمور لا تترك « الحسين » — وهو المؤمن بحقه ، الجريء

به ، الشار له — يتلبث أو يتريث ؛ فلقد أظهروا تأييدهم له  
أولا ، ثم قضوا بالذى فعلوا ثانيا على حذره ، فلم يبق له إلا أن  
يسرع إليهم ، وقد أرسلوا يستعجلونه ،

ولكن « الحسين » على هذا كله كان يحب أن يطعن شيئا ، فكتب  
إليهم : أما بعد . فقد فهمت كل الذى اقتصصتم . وقد بعثت إليكم  
بأخى وابن عمى وثقتى من أهل بى : « مسلم بن عقيل » ؛ وأمرته  
أن يكتب إلي بحالكم وأمركم ورأيكم . فإن كتب إلى أنه  
قد اجتمع رأي ملائكتكم وذوى الحجى منكم على مثل ما قدمت به  
رؤسلكم ؛ أهدم إليكم وشيكا إن شاء الله

فلعمري ما الإمام إلا الصامل بالكتب والقائم بالقسط  
والدائن بدين الحق . والسلام .



ويُخِيلُ إِلَى أَنَّ «الحسين» كَانَ عَجَلًا هُوَ الْآخِرُ ، عَلَى الرَّغْمِ  
مَا بَدَأَ مِنْ تَرْيِثِهِ ، وَإِرْسَالِهِ مُسَلِّمًا ، عَلَى الطَّرِيقِ قَبْلَهُ ، يَتَطَلَّعُ لَهُ قَبْلَ  
أَنْ يَمْضِيَ هُوَ .

وَيَكَادُ خَطَابُهُ هَذَا يَكْشِفُ عَنْ عِجَالَتِهِ تِلْكَ ، فَلَقَدْ كَانَ فِيهِ  
«الحسين» مُوجِزًا كُلَّ الْإِيجَازِ . يَسْعِجِلُ نَفْسَهُ عَنْ أَنْ يُطِيلَ  
فِيضْبِيعِ وَقْتِنَا ، وَيُسْعِجِلُ نَفْسَهُ عَنْ أَنْ يَمْلَأَ رَسُولُهُ إِلَيْهِمْ «مُسْلِمًا»  
ابْنَ عَقِيلٍ ، نَتْرَةً أُخْرَى فَتَفُوتَ الْفُرْصَةُ ، وَكَأَنِّي بِهِ قَدْ أَحَسَّ  
أَنَّ الْعَبْيُونَ أَخَذَتْ تَرْفُوبُهُ ، وَالْآذَانُ أَرْهَفَتْ لِنَسْمَعِهِ ، وَقَدْ  
فُوتَ هُوَ وَقْتًا فَلَا يَحِبُّ أَنْ يَفُوتَ وَقْتًا آخَرَ .

مَنْ أَجَلَ هَذَا كُلَّهُ كَتَبَ «الحسين» كِتَابَهُ الَّذِي كَانَ يَحِبُّ أَنْ  
يَصْدُرَ عَنْهُ ، فِيهِ الْإِسْهَابُ ، وَفِيهِ الْإِطَالَةُ ، إِنْ لَمْ تَكُنْ مُبَادِلَةً لِلْقَوْمِ  
عَلَى مَا فَعَلُوا مِنْ مِثَالِهَا ، فَمَا كَانَ أَوْلَاهُ أَنْ يَصْدُرَ عَنْهُ يَضْمُرُ رَأْيَهُ ، وَيَكْشِفُ  
عَنْ حَقِّهِ ، وَيَتَضَمَّنُ مُسَابِقَةً ، وَيَذْكُرُ فَضْلًا .

لَقَدْ خَلَا الْكِتَابُ مِنْ شَيْءٍ مِنْ هَذَا كُلِّهِ ، وَكَانَ يَجِبُ أَنْ

يضم هذا كله ، واجتزاؤه فيه « الحسين » بتلك الكلمة القصيرة التي  
صنعتها صفة الإمام العادل ، وكأنه ، إنما كان يسمى نفسه ،  
ويُدعى بها على غيره .

ولعل « الحسين » إلى جانب تلك الحشية التي عجلت به عن أن  
يطيل ، كان على ثقة من نوايا هؤلاء الأنصار ، فكيف عما يجب أن  
يقال مثله لمن ليس لهم علم هؤلاء بأمرهم وياتيهم به .

\*\*\*

ومضى « مسلم بن عقيل » برسالة « الحسين » يسعى نحو الكوفة  
بعد أن أوصاه « الحسين » بما يريد منه .

فلقد أوصاه بتقوى الله ، وكان ذلك أول ما أوصاه به لا عن  
شك في « مسلم » ، ولكن خوفاً عليه من دنيا قد ازدحمت بالذنن ،  
منها المغرر الممغن في الإغراء الذي لا يقوى على كبح نفسه دونه  
إلا من عصم الله بهتواه ، ومنها المرهب الموجل في إرهابه الذي لا يصمد  
له ولا يقوى عليه ؛ إلا من خشى الله وحده ولم يخش سواه ،  
و « مسلم بن عقيل » رسول « الحسين » الأول ، وقد يكون  
الآخر — فليست الفتنة مُمثلة « الحسين » ليغثير من يخار

فرو إن مال أوزكص اقلببت الفتنه عليه ولم تستوره .  
ولقد أوصاه بكميان أمره ، وأن يلطف بالناس ولا يعنف  
هم ، فإن رأهم مجتدين له بحجج إلهيه أخبره .

\*\*\*

ولقد اختار « الحسين » لرسالته ثقة من أهل بيته ، ولكنه لم  
يختر منهم جليلاً يؤمن بها إيمانه ، ولا يهوله فيها ما يركب ، فما  
كاد « مسلم » يودع أهله ويودّعونه ، وينفصل عن المدينة حتى  
يهزل الطريق ، وينفذ ما معه من ماء فيموت دليلاً عطشاً ، ثم  
تستقيم له الطريق إلى الماء ، فيبأخه بعد جهد وليس فيه إلا زمام ،  
ويرى نفسه حين بلغ الماء قد نزل مكاناً يدعى المضيق ، فيتطير  
ويهلح ، ويكتب إلى « الحسين » به — د أن يصف له ما كان :  
« إن رأيت أعفيتني وبعثت غيري » .

وما فزع اسم المسكان « مسلم بن عقيل » ، ولا فزعه هذا  
التطير ، ولكن كان — كما قلنا — غير مؤمن برسالته إيمان أخيه  
بها ، فما إن وقع على سبب مما يجزع الناس له جزعاً خفيفاً ، حتى  
جزع هو له جزعاً شديداً ، ونظر إلى حياته وإلى ذلك المطالب الذي

خرج له ، فرأى حياته أعزَّ عليه من ذلك المطلب ، وهو إن رجع  
فقد ضمن الحياة ، وإن مضى فما هو بضامن نُجِّح ذلك المطلب .  
ولعل شيئاً آخر كان يشغل نفس « مسلم بن عقيل » ، قد  
يكون وضح له ، فهو يستعمل منه وهو يشعر ، وقد يكون خاطراً  
يُصدر هو عنه وهو لا يشعر ، وقد يكون هذا الشيء الذى  
انطوت عليه نفس « مسلم » بين الخفاء والظهور ، هو أن « مسلماً »  
ساع لغيره لا لنفسه ، سيصيب الخير بيته . إن قدر لهذا الخير أن  
يجىء ، ولكن أين ترتيبه من هذا ، وما هو موضعه من هذا الخير .  
إن صح هذا أوَّلنا ما كان من « مسلم بن عقيل » من اثناء  
وإيثار للرجوع . فلم يكن التطير وحده عاة هذا ، وإنما كان قبل  
التطير هذا الخاطر الذى تحرك فى نفسه عن قصد أو عن غير  
قصد ، وما نحب أن نظن بمسلم الجُبِّين وإن كان قد ظنه به أخوه  
« الحسين » حين قال له وهو يرد عليه : أما بعد . فقل خشيت  
ألا يكون حملك على الكتابة إلى إلا الحين ، فامض لوجهك .

\* \* \*

ولقد دلنا « مسلم بن عقيل » بالذى فعل كيف ستمضى

المعركة ، وهو حامل لوائها ، فما نَشُكُ في أنه مضى إليها مأمورا  
غير مرید ، متهورا غير مُسختار . هنا لن تنفعه تقوى الله التي  
أوصاه بها أخوه وهو يُرسله ، فلقد ملكه الخرف ، يذكيه في  
نفسه أنه قد تطاير ، ويذكيه في نفسه أن الغنم اغيره ، وهو فيه  
مأجور له حظا قليل .

ولن يكون رفيقا بالناس كما أوصاه أخوه ، فقد برم بما  
يحمل وضيجر ، والرفق بالناس لا يصدر إلا عن قلب قد امنأ  
رضى وطمأنينة ، كما لن يكون كَتوما كم أوصاه أخوه ،  
فهو في حيرة من أمره ، والكتمان شيء لا يقوى عليه إلا من  
ملك زمام نفسه ، ولم تلبل عليه الحيرة خاطره .  
وما بكاد « مسلم » تطأ قدماه الكوفة حتى يمضى يؤدّي  
رسالته على الوجه الذي فرضه عليه هذا النطير ، وهذا الخاطر ،  
وهذا البرم ، وهذا الضجر ، وهذه الحيرة ، ويلتف به الناس  
علانية ، ويقرأ عليهم كتاب « الحسين » جهرة ، فإذا هو قد علم  
مكانه ، وإذا والى الكوفة « النعمان بن بشير » قد نذر به .

ويفزع « النعمان بن بشير » إلى المنبر يخطب الناس وقد اجتمعوا إليه ، وكان حليماً ناسكاً يحب العافية ، وهو على ذلك كان لا يحب أن يُغلب على أمره ، فأخذ يحذّر الناس الفتنة أولاً ، يملئ عليه في ذلك قلبه ؛ ثم أخذ ينذر الناس بطشه ثانياً ، يملئ عليه في ذلك حرصه على ألا يُغلب .

ولكن رجلاً من أحلاف بني أمية هو « عبد الله بن مسلم ابن سعيد الحضرمي » -- وكان حاضر ذلك -- لا يقع بما كان من « النعمان بن بشير » فيقول له : إنه لا يصلح ما زى إلا الغشم ، وإن هذا الذي أنت عليه رأى المستضعفين .

وكذلك كان بنو أمية -- وكان أحلاف بني أمية -- يخافون صغار الأمور ، كما يخشون كبارها ، ولا يرحمون خصمهم على الصغيرة كما لا يرحمونه على الكبيرة ، ويرون أن استئصال الداء حين يبدو ، خير من الرفق به علاجاً حتى لا يستعصى .

لهذا شتم « عبد الله بن مسلم » يكتب إلى « يزيد » يخبره بمقدم « مسلم بن عقيل » الكوفة ومبايعة الناس له . ويقول له في حزم : إن كان لك في الكوفة حاجة فابعث إليها رجلاً قوياً

ينفذ أمرك ، ويعمل مثل عملك في عدوك ؛ فإن « النعمان » رجل ضعيف ، أو هو يتضعف .

وكما كتب الشيعة إلى « الحسين » كتاباً بعد كتاب ، كتب أنصار « يزيد » إليه كتاباً بعد كتاب ، وكان أول السكاتين إليه « عبد الله بن مسلم » هذا ، ثم تلاه غيره ، فكتب إليه « عمار بن الوليد بن عقبة » . وكتب إليه « عمر بن سعد بن أبي وقاص » ، كما كتب إليه غيرهما ، كلهم يُحذرون وينذرون .

\*\*\*

وكما كان « الحسين » عجلًا لينا جز خصمه ، كان « يزيد » عجلًا ليقضى على خصمه ، وأولهما يسعى إلى ملك يريد أن يجمع أسبابه بين يديه ؛ وثانيهما يريد أن يحتفظ بملك قد اجتمعت أسبابه لديه ؛ وأولهما يسعى لأمل لم يذقه ، وثانيهما يدافع عن أمل ذاقه ؛ لذلك كان ثانيهما أعنف على خصمه ، وأشدّ قسوه للدفاع عن حقه . وسرعان ما استبدل « يزيد » بـ « النعمان بن بشير » الناسك الحليم رجلاً لم يدخل النسك قلبه ، ولم يعمر الحلم وجدانه هو : « عبيد الله بن زياد » ، ولم يكن بعيداً عن قرابته ، فقد

أستلحق « أبو سفيان ، أباه « زيادا ، ودسه على بنى أمية .

\* \* \*

ولم يُحمل « يزيد » « عبيد الله » يوما أو بعض يوم ، وإنما أمره أن يخرج إلى الكوفة من غده ، لا يترك « مسلم بن عقيل » إلا مقتولا أو منفيًا .

وكانى بأهل الكوفة الذين استيقظوا على موت « معاوية » ، وولاية « يزيد » ، وخروج « الحسين » ونفر معه عليه ؛ كادوا أن يعودوا إلى سُبُبانهم حين علموا بمقدم « عبيد الله بن زياد » إليهم . فلقد حسبوا اللقمة سائغة ، وأن خصمهم قد هان فهبوا ، ولقد رأوا « الحسين » يُقدم إليهم رجلاً وبوخر أخرى ، فقتلوا شيثا ، ولقد لقوا رسول « الحسين » إليهم « مسلم بن عقيل » وليس فيه الغيرة على ما يحمل ؛ فترخوا ، ولقد ساء لهم ألا يُقدّم إليهم « الحسين » ، فيخوض بهم المعركة في حينها لا يضن بنفسه ، فلما عزّ عنهم شيثا بدأ نفرٌ منهم يضن بنفسه ، ولما رأوا أمرهم قد افتضح ، وأن خصمهم قد تذبّه لهم تحاذلوا ، وحين علموا أن « عبيد الله بن زياد » هو واليهم الجديد تلبّثوا يتدبرون حيانهم .



لهذا كان خروج « الحسين » إليهم بعد هذا ليس من التسدير  
في شيء ؛ فلقد كتب « الحسين » إلى أشرف البصرة كتابا  
يحفزهم إليه ليقيموا الدين للناس بعد أن زعزع أركانه بنو أمية .  
كتب بذلك إلى « مالك بن مسمع البكري » ، وإلى « الأحنف  
ابن قيس » ، وإلى « المنذر بن الجارود » ، وإلى « مسعود بن عمرو » ،  
وإلى « قيس بن الهيثم » ، وإلى « عمر بن عبيد الله بن معمر » ،  
وإلى غيرهم .

فكلهم تلقى كتابه يكتسبه في قلبه ، لا تتحرك له يد ، ولا  
ينطلق به لسان ، خَوَرًا وَضَعْفًا .

ويبلغ الخور والضعف بواحد منهم ، وهو : « المنذر بن  
الجارود » ، غاية ، فإذا هو يسعى بالكتساب وحامله إلى  
« ابن زياد » ، وهو يظن أن « ابن زياد » قد دسسته عليه ليخبر  
ما عنده ، فيمزق « ابن زياد » الكتاب ويضرب عنق حامله .

ولربما كان خالف « المنذر بن الجارود » غيره من إخوان  
له بلغ بهم الخوف مبلغه ، إلا أنهم استمسكوا شيئا ولم يفعلوا .  
ثم يقف « ابن زياد » بين أهل البصرة يخطبهم ، وهو يريد أن

يسمع أهل الكوفة، وهو يقول : يا أهل البصرة : إن أمير المؤمنين قد  
ولاني الكوفة ، وأنا غاد إليهم بالعدة ، وقد استخلفت عليكم  
أخي « عثمان بن زياد » ، فإياكم والخلاف والإرجاف ، فوالله  
لئن بلغني عن رجل منكم خلاف لأمر الله وعريفه ووليته ،  
ولأخذن الأدنى بالأقصى حتى تستقيموا ، ولا يكون فيكم  
مخالف ولا مشاق ، وأنا « ابن زياد » أشبهته من بين من  
وطئ الحصى ، فلم ينتزعي شبه خال ولا ابن عم .

ولقد دوت كلمة « ابن زياد » في آذان أهل البصرة فوعتها  
ووجلت لها قلوبهم ، وهون عليهم الأمر شيئاً أنه غداً  
عنهم راحل ، وليس « عثمان » كعبيد الله ، كما دوى صداها  
في آذان أهل الكوفة فوعتها ووجلت لها قلوبهم ، وصعب  
عليهم الأمر شيئاً أنه قادم إليهم فلاقهم ومقيم بينهم .

\*\*\*

وما تسكاد قدماء عبيد الله بن زياد ، تطأ أرض الكوفة  
حتى تطأ المنبر فإذا هو واقف عليه يقول : أما بعد . فإن  
أمير المؤمنين ولاني مصركم وثمركم وفيثكم ، وأمرني بإنصاف

مظلومكم وإعطاء محرومكم ، وبالإحسان إلى سامعكم ومُطيعكم ،  
وبالشدة على مُريبكم وعاصيكم . وأنا مُتَمِّع فيكم أمره ومنقذ  
فيكم عهده ، فأنا لمُحسنكم كالوالد البرّ ، ولمُطيعكم كالآخ  
الشقيق ، وبسيفي وسوطي على من ترك أمرى وخالف عهدي ،  
فليسبق امرؤ على نفسه .

ما زادنا على ذلك ، ثم نزل .

• • •

عرف « عبيد الله بن زياد » أن القلوب منها ما يُباع ويُشترى ،  
ففتح لها هذا الباب على مصراعيه ، يدخل منه الطامع في جوار  
بنى أُمية ونسبهم .

وعرف « عبيد الله بن زياد » أن من القلوب ما يخاف ويخشى ،  
فلوّح لها بعُنفه وبطشه غير مكذوب في هذا التلويح ، فقد سبق  
إليهم ما فعله في البصرة مع هذا الرجل الذى ساقه إليه « المذمر  
ابن الجارود » .

وعرف « عبيد الله بن زياد » أن هناك نفرا بين هؤلاء  
وهؤلاء لا يرضونهم إليه طمع ، ولا يُخيفهم منه بأس ، فبعث إليهم

رجاله يأخذونهم أخذاً شديداً ، وألزم العُرفاء أن يُحصوا له  
الناس على ما تُضمّر نفوسهم وتُخفى ، وهو يقول لهم : مَنْ  
كتب إلى قنّدي برى ، ومن لم يكتب لنا أحداً فلا يضمن لنا ما في  
عرفته ألاّ يُخالفنا منهم مُخالف ، وألاّ يبغى علينا منهم باغ .  
فمن لم يفعل فبرئت منه الذمة وحلالٌ لئامه وماله . وأما  
عريف وجد في عرفته من بُغية أمير المؤمنين أحدٌ لم يرفعه  
إلينا صُلب على باب داره

\*\*\*

ويسمع « مسلم بن عقيل » بمقالة « ابن زياد » فيهنّ لها قلبه ،  
ويُحس أن صاحب الدار الذي يؤويه لا شك خائف فضائق به ،  
فيخرج عنه إلى دار « هانيء بن عروة المرادي » يطرق عليه بابه ،  
ويُدرّك « هانيء » مَنْ القادم عليه ، فيخرج لا ايرحّب به ،  
ويهش له ، ولكّنه يلقاه عابسا وهو يقول له : لقد كلفني  
شططا ، ولولا دخولك داري لأحببت أن تنصرف عني . غير  
أنه يأخذني من ذلك ذمام ، أدخل .

ولقد مرّ بك ما كان من « المنذر » بالبصرة ، وهانت ترى

ما كان من « هاني » ، بالكوفة ؛ حادثان إن دلت أولاهما على حذر ليس معه تنكير للدهد ، فقد دلت ثابتهما على خوف يكاد يحمل التنكير للدهد .

وإلى هذه الحال أو قريب منها يكاد يذهب أمر الشيعة ، فلقد انصرفوا عن الجهر بما كانوا يقولون إلى الإسرار به ، وعن الإعلان بما يريدون إلى التخنس فيه .

و « عبيد الله بن زياد » ، جاد في إثر « مسلم بن عقيل » ، يتعقبه ، وأصبح هذا الذي نزل الكوفة منذ قليل ليعرف خبر القوم ، ويكتب للحسين ليقدم ، قد حبس نفسه في دار « هاني » ، لا يخرج منها ولا يعلم من أمر القوم الذين سيكتب عنهم إلا القليل الذي يصل إليه عفواً ، ومما لا يُغنى « الحسين » شيئاً ، كما أصبح « مسلم » ، في مخبئه لا يُغنى عن أمر الشيعة شيئاً . وعاد الشيعة كما كانوا أولاً ، لا هم إلى حرب فيستعدون ، ولا إلى سلم فيهدون ، ولكن كانوا بين هذه وتلك يتخطفهم . « ابن زياد » ، واحداً بعد الآخر .

ويحس « عبيد الله بن زياد » من يخبي « هاني » ؛ دله عليه

رجل كان له عينا عليه ، فيطلب « ابن زياد » « هانئا » إليه ليلقاه ، فيعتذر أولاً ، ثم يلبي ثانياً فيقول له « ابن زياد » : « جئت بمسلم فأدخلته دارك وجهمت له السلاح وظننت أن ذلك يخفى .

ويقول له « هاني » : اسمع مني وصدقني ، فوالله لا أكذبك . والله ما دعوتك ولا علمت بشيء من أمره حتى رأيته جالساً على بابي يسألني السؤال على ، فاستحييت من رده ، ولزمني من ذلك ذمام ، فأدخلته داري وضمفنته ، وقد كان من أمره الذي بلغك . فإن شئت أعطيت الآن هوثفا تطمئن به ، ورهينة تكون في يدك ، حتى أنطلق وأخرجه من داري وأعود إليك .

فيقول له « ابن زياد » : لا والله ، لا تفارقني أبداً حتى تأتيني به .

ويثور في نفس « هاني » خلقة عربي ، لا ينزل عنه عربي أبداً . يستوى في ذلك أكان المدافع عنه عدواً أو صديقاً ، هذا الخلق هو وماشاع عن العرب وأثر عنهم ، وضربت به الأمثال ، ألا وهو إكرام الضيف وحمايته والدفاع عنه ، من أجل هذا الخلق

وحده ؛ لامن أجل الرأى الذى رَبط ما بين « هانىء » و « مسلم بن عقيل » ، والذى من أجله ثار الشيعة وكتبوا للحسين ، والذى من أجله أرسل « الحسين » « مسلم بن عقيل » ؛ من أجل هذا الخلق وحده قال « هانىء » لابن زياد : لا آتيك بضيق ثقله أبدا .

وهانت ترى مرة ثانية كيف ذاب حماس الشيعة أمام تهديد « ابن زياد » وشدته ، ولم يكن « هانىء » إلا واحدا منهم ؛ بل كان كبيرا من كبرائهم ، يخطو فى إثر خطوه مئات ، ويعنف بعنفه مئات ، ويلين بليينه مئات .

وكنا نحبا كلمة أخرى تجرى على لسان « هانىء » قبل كلمته هذه ؛ أو مع كلمته هذه كنتا نحبه أن يكون شجاعا لرأيه وما يدين به كما كان شجاعا لعاداته تلك التى نشأ عليها ، ولكنه نسى هذا الرأى حين أحس المتلفة فى ظله ، وذكر هذا الخلق لأنه خاف أن يترك الحياة بسببه التدخل عليه وعلى أبنائه ، فلا يزالون يُمَيِّرون بها إلى آخر الدهر .

ولعلنا نفيد من حديث « هاني » جديدا قد لا يكون توكيدا ،  
ولكنه ظن يثيره ظن : هو أن الرأي الذي لف الشيعة بحبله لم  
يكن قد بلغ بعد أن ينزل من قلوبهم منزلة العقيدة الدينية التي  
دخلت عليهم قلوبهم ، فملأها ملنا لا متسع فيها لغيرها ، فرموا  
بأنفسهم إلى الموت لا يخشونه في سبيلها . واستعذبوه على مرارته  
وهشوا للقاءه ، يذكرون حقا يغبطهم معه أنهم سوف يلقون  
ربهم عليه .

ولعلنا نفيد من حديث « هاني » جديدا آخر ، قد يكون  
توكيدا وليس ظنا يثيره ظن ، هو أن هذا النزاع الذي جمع  
الشيعة على الحسين ، كان مردّه إلى ذلك الكثرة الذي حمله غير  
القرشيين للقرشيين ، وقد غنموا قهر الأمويين للهاشميين على  
حقهم ، ايجملوا منها فرصتهم للوثوب بالأمويين ؛ من أجل ذلك  
التقوا بالحسين ، كما التقوا بالحسن ، وكما التقوا بعلي ، وهم في كل  
مرة التقوا فيها لم يكونوا يصدرون عن وعي يشبه وعي العقيدة ؛  
لهذا سرعان ما كانوا ينفضون إن أحسوا اليأس أو أذروا  
بالشدة .



هكذا بدأ الرأي الشيعي ؛ بدأ رأيا سياسيا ، ثم كان رأيا دينيا فيما بعد .

ولقد ثار الجدل بين « ابن زياد » و « هاني » ؛ لا يذكر « هاني » إلا هذا الذي ذكره من قبل ، وهو حق الضيف عليه ؛ ولا يذكر « ابن زياد » إلا أن يُسلم « هاني » « مسلم ابن عيقل » إليه .

ويدخل بينهما رجل من القوم كان حاضرا هما ؛ ليهون الأمر على « هاني » ويحقق لابن زياد ما يرغب ، فيخلو بـ « هاني » يقول له : يا هاني : أنشدك الله أن تقتل نفسك ، وتدخل البلاء على قومك ؛ إن هذا الرجل ابن عم القوم — يعني بني أمية — وليسوا بقاتليه ولا ضائريه ، فادفعه إليه فليس عليك مخزاة ولا منقصة ، إنما تدفعه إلى السلطان .

فيقول له هاني : بلى والله ، إن عليّ في ذلك خزيًا وعارا ، لا أدفع ضيفي وأنا صحيح شديد كثير الأعوان ، والله لو كنت واحداً ليس لي ناصر ، لم أدفعه حتى أموت دونه .

وهكذا يسجل « هاني » على نفسه مرة ثانية نسيبانه

رأيه الذى شارك فيه وهيج له ، مع إقرار منه بأنه كثير العون والناصر ، ولكنه لا يثيرهم ولا يثورون معه لهذا رأى ، وإنما يثيرهم ويثورون معه لغيره مما هو دون هذا رأى .

\* \* \*

ولكن للقصة بقية تكشف لك عن نفوس هؤلاء الشيعة من أهل الكوفة ، كما كشف لك أولها عن نفس « هانى » :  
فلقد وكل « ابن زياد » ، بهانى مَن ضربه على وجهه حتى كسر أنفه ، ونثر لحم خديّه وجبينه على الحية ، وملاً حجره دما .  
فتقبل « مذحج » ، شيعة « هانى » ، وعليها « عمرو بن الحجاج » ، فتحيط بقصر « ابن زياد » ، يظنون أن « هاتنا » قد قُتِل ، فيُطْل عليهم « شريح القاضى » يُخبرهم أن صاحبهم لم يُقتل ، فينقلبوا راجعين وهم يقولون :

الحمد لله إذ لم يَمُتْ هاتنا ! ...

فهم لم يثوروا لما فعل « ابن زياد » ، بـ« هانى » ، يُسيئه على إخوانه « مسلم بن عقيل » ، وإنما ناروا حين ظنوا أن « ابن زياد » قتل « هاتنا » .

يُقرّون لابن زياد أن ينكل بـ«هاني»؛ ليستخلص منه «مسلم» ابن عقيل ، ، ولا يُقرّونه على أنه يقتل على هذه سيدهم ، وكانهم أحسّوا أن سيدهم لا بد مستأين مع تنكيل «ابن زياد» فتركوه يألم ليستجيب ، وأن «ابن زياد» لن يقتل سيدهم لهذه فتركوه بين يديه يشتد به حتى يحيب .

ثم إن للقصة بقية أخرى لا يفوتك أن تعرفها :

يروون أن الخُبر بلغ «مسلم بن عقيل» فخرج من مكانه يدعو أصحابه إليه ، فإذا هم ثمانية عشر ألفا ، كلهم قد بايعه ، من «كندة» ، ومن «مذحج» ، ومن «أسد» ، ومن «تميم» ، ومن «هوازن» . ويخرج بهم نحو قصر «ابن زياد» .

ويروون أن «ابن زياد» لما بلغه إقبال «مسلم» إليه فيمن اجتمع حوله تحرّز في قصره وأغلق الباب عليه ، ليس معه في القصر إلا ثلاثون رجلا من الشرطة ، وعشرون رجلا من من الأشراف ، هذا غير أهل بيته ومواليه .

ويروون أن «ابن زياد» كان فيمن معه رجال من أشراف «كندة» و«مذحج» و«تميم» ، فأمرهم أن يخرج كل واحد منهم إلى سنّ

مع « مسلم بن عقيل » من قبيلته يخوِّفهم ويخذلهم  
 كما أمر مَنْ عنده من الأشراف أن يطلوا على  
 الناس من القصر فيُمنّوا أهل الطاعة ، ويخوِّفوا أهل  
 المعصية .

فإذا الناس كلهم ، الذين اجتمعوا حول « مسلم بن  
 عقيل » قد تفرقوا عنه ، وإذا « ابن عقيل » ليس معه غير  
 ثلاثين رجلا .

وكما اجتمع الشيعة حول « مسلم بن عقيل » تضامهم  
 إليه كلمة ، افرقوا عنه تفرقهم كلمة ، ولا ندرى الآن  
 « مسلم بن عقيل » لم يكن الرجل الذي دبّروا الثورة من أجله ؟  
 أم لأنهم لما رأوا صاحبهم ابتعد عنهم ولم يحضروهم ابتعدوا  
 هم عن « مسلم » ولم ينصروه .

أم لأن الشيعة - كما وصفناهم - لم يكونوا يصدرون عن  
 رأى ، للأسباب التي قدّمنا من قبل ؟

\* \* \*

ومضى « مسلم بن عقيل » يضرب في أزقة الكوفة ، لا يدري

أين يذهب ، وإذا هو آخر الأمر أمام باب امرأة من « كندة » ،  
وكان لها ابنٌ خرج مع الناس ، وجلست هي ترقب عودته . فسلّم عليها  
« ابن عقيل » ، وطلب منها ماء فسقّته وجلس يستريح . وإذا  
المرأة تقول له : يا عبدالله ، ألم تشرب ؟ فيقول لها « مسلم » : بلى .  
فتقول له المرأة : قم فاذهب إلى أهلك .

ويُطرق « مسلم » والمرأة تقولها ثلاثا وهو لا يبرح ، حتى  
إذا برمت به اتجهت إليه تقول له في عُسْف : سبحان الله ... إلى  
لا احل لك الجلوس على بابي .

عندها يخرج « مسلم » عن صمته ويقول للمرأة والاسى  
يملأ عليه جوانحه : أبا « مسلم بن عقيل » كذبتى هؤلاء القوم  
وغرّوني .

وترثى له المرأة وترقّ له ، وتدخله دارها وتعرض عليه  
العشاء فلا يذوق منه شيئا ، ويحجى عنها ، فيعلم من أمه خبر  
« مسلم » بعد إلحاح منه عليها ، وتستكتمه أمره ، وتأخذ عليه  
الآيمان بذلك : فيسكت .

ويُصبح « ابن زياد » فيرسل في إثر « مسلم » من يبحث عنه ،  
ويشتد في ذلك ، ولا يقوى هذا الابن الذي آوت أمه « مسلم  
ابن عقيل » على أن يكتّم ، ويخاف نكال « ابن زياد » به إن هو  
رآه عند أمه وفي بيته ، فيسعى هو إلى « ابن زياد » يُخبره خبره ،  
وإذا « مسلم » بين يدي « ابن زياد » .

ولكن « مسلما » لم يُسلم نفسه إلاّ بعد قتال بينه وبين من  
اقتحموا عليه الدار ليأخذوه ، وإلا بعد أن قال له « محمد  
ابن الأشعث » : لك الأمان فلا تقتل نفسك ، وإلاّ بعد أن أثنى  
بالجراح وعجز عن القتال .

وأنى القوم ببغلة فحملوه عليها بعد أن انتزعوا منه سيفه ، فإذا  
عيناه تدمعان ، وإذا هو يقول : هذا أول الغدر .

ويتجه إليه رجل من القوم وهو يقول له : « مَنْ يطلب مثل  
الذي تطلب ؛ إذا نزل به مثل الذي نزل بك لم يبك ... »  
فيقول له « مسلم » : « ما أبكى لنفسى ، ولكن أبكى للمستقلين  
إليكم ، أبكى للحُسَيْن وآل الحُسَيْن ... »

وقبل أن ننتقل بك إلى أخبار « الحسين » نحب أن نفرغ

من حديث « مسلم » .

فقد قدم « محمد بن الأشعث » بـ « مسلم » على « ابن زياد » وأخبره

خبره ، وذكر له أمانه له .

وهنا تصبح الكلمة لـ « ابن زياد » بعد أن ملك ، يريده هذا

المُلك عُنفا إلى عُنفه ، أو قتل يرده الملك إلى عُنفه المعهود ،

فيقول لابن الأشعث : ما أنت والأمان ، ما أرسلناك لتؤمنه ،

إنما أرسلناك لتأتيناه .

فيسكت « ابن الأشعث » ، على استحياء لا يقول شيئا .

وتمضى القصة تكشف لك عن قسوة الإنسان بأخيه ، لا

ترده عنها رحمة ولا تثنيه قرابة .

فيحكون أن « مسلم بن عقيل » اشتد به العطش ، وقد طال

انتظاره على باب قصر « ابن زياد » ، ورأى جرة فيها ماء

بارد . فقال : اسقوني من هذا الماء ... خال بينه وبينه رجل من

القوم لاضير عليك من أن تعرف اسمه ، فلقد كان « مسلم

ابن عمرو الباهلي ، واقدراى أن يُضيف إلى عناء « مسلم بن عقيل » عناء

آخر، فقال له وهو يتهم به : أترأها ؟ .. ما أبردها ؟ .. والله لا تذوق منها قطرة حتى تذرق الجحيم في نار جهنم .  
ويدخل « مسلم » على « ابن زياد » فيقال له : ألا تسلم على الأمير ؟ .

فيقول « مسلم » : إن كان يريد قتلى فما سلامي عليه ، وإن كان لا يريد قتلى فلا يسكنون تسليمي عليه .  
فيقول له « ابن زياد » : لعمرى لتقتلن .

ولم ير « ابن زياد » أنه قد شفى نفسه بهذه الكلمة، ولا بلغ بها من نفس « مسلم » ما أراد ، فيقول : قتلى الله إن لم أقتلك قتلة لم يقتلها أحد في الإسلام .

وتشير هذه الكلمة « مسلم بن عقيل » فيثور به « ابن زياد » ، فقد عرف ما ينتظره على يديه ، فما عليه أن يشفى نفسه كما شفى « ابن زياد » نفسه ، فالتفت إليه وهو يقول له :

أما لك أحق من أحدث في الإسلام ما ليس فيه ، أما لك لا تدع سوء القتلة ، وقبح المثلة ، وخبث السيرة ، ولوم الغلبة ، ولا أحد من الناس أحق بها منك .



هناك يملك « ابن زياد » إلا أن يشتمه، ويشتم « الحسين »،  
ويشتم « عليا »، ويشتم « عقيلًا » .  
ثم سرعان ما أمر بمسلم فأصعد فوق القصر لتضرب رقبة،  
وليشتم عوار أسه جسده و « مسلم » لا يكف عن التسييح والاستغفار .

\* \* \*

ويطعم « ابن زياد » في أخرى بعد أن مرت الأولى بسلام -  
أعنى قتل « مسلم » - ليجمع القلوب على رهبته . ويزيدها من  
خشيتها ، فيأمر بـ « بهانيه » فيخرج به إلى السوق فيضرب عنقه ،  
يتولى ذلك منهم مولى تركي لابن زياد .

ثم يجمع « ابن زياد » رأس « مسلم » إلى رأس « هاني »  
ويبعث بهما إلى « يزيد » ليشبع في غير الكوفة ماشاع في الكوفة ،  
وليخشاه مع أهل الكوفة من هم في غير الكوفة .

وما درى بالذي فعل أنه غرس في قلوب أهل الكوفة  
وقلوب غير أهل الكوفة - إلى جانب هذه الخشية - موجدة مضت  
الأيام نزعزع جذور الأولى ، وتوصل للجذور الثانية ، حتى  
كانت الفتنة الصاخبة بالأمويين التي سنحدثك حديثها بعد حين .

ولكن أين كانت « مذبح » ، وأين كان « عمرو بن الحجاج »  
الذى ثار منذ وقت قريب حين بلغه مقتل « هاني » ؟  
وأين هؤلاء الثمانية عشر ألفا الذين تحركوا مع « مسلم »  
منذ قليل ؟

لقد ردّوا جميعا على أعقابهم لا تضطرب أيديهم بالسيوف ،  
ولكن تضطرب قلوبهم بالنقمة والسخط .

لقد كان « بن زيد » ، قليلا بجنده ، ولكنه كان كثيرا بالأشراف  
الذين طمعوا في جاه بني أمية ونشّبهم ، ففتوا في عضد الناس .  
ولقد كان « ابن زياد » ، عنيفا لا يرعى إلا « ولا ذمة » ، ففت  
عنّفه في عضد فريق آخر من الناس ، وهم الذين لم يكن  
الذى جمعهم قد بلغ مبلغ العقيدة في قلوبهم ، فاستكانوا في يسر  
يسير .

وخلا الجو لا بن زياد يمضي في الطريق إلى نهايته ، يشجعه  
« يزيد » ، على أن يفعل ، وهما يظنان أنهما يشبتان ملكا ، وما حسبنا  
أنهما يغرسان حقدًا لا يشبت معه ملك ، وإن بدا قويا ، وما قدرا  
أن السيف الذي يحمى المالك إلى انقلام ، وأن القلوب التي

تحوط الملك إلى غير دوام .

ولكن أنى للأمويين أن يستبدلوا بسياسة العنف سياسة السلم والرفق ؟ ذلك مالم يمكن لهم إليه سبيل ؛ فالأمر اغتصاب وسبيل ذلك إلى الأقوى ، ولم يكن الأمر شورى مرده إلى الشعب يحكم لمن يرضى .

وهكذا كانت سياسة الأمويين سياسة عنيفة عنفا لا يحيد لهم عنه ، وكانت مقاومة الهاشميين هى الوسيلة التى لا بد لهم منها . وكان لا مفر للشعب من أن يسكون بين هؤلاء وهؤلاء يشقى بالقتل ، ويشقى بالفرقة ، لا تستقيم له حال إلا فى القليل .

\* \* \*

والآن نعود بك إلى حديث « الحسين »؛ فقد كتب إليه « مسلم بن عقيل » قبل أن يلقى حتفه ، وحين اجتمع إليه هؤلاء النفر الثمانية عشر ألفاً ، وحين وقع « هانيء » في يد « ابن زياد » ، يخبره بأن الفرصة مواتية ، وما عليه إلا أن يسقصد قَصْد الكوفة .

واقْد أخطأ « مسلم » كما أخطأ « الحسين » من قبله : أخطأ « مسلم » لأنه نظر إلى الناس في عديد هم ، ولم ينظر إليهم في قلوبهم .

واقْد أخطأ « الحسين » حين لم يعجل إلى أهل الكوفة قبل أن ينزل بهم « ابن زياد » ، إذ كان الناس على « النعمان بن بشير » أجراً ، وكانوا مع « ابن زياد » أضعف ، وإذ كان « النعمان » رقيقاً يطمع الناس فيه ، ولم يكن كـ « ابن زياد » يخاف الناس منه ، وإذ كان « النعمان » أعجز من أن يضم الأشراف حوله بالرغبة والرهبة ، على حين ضم « ابن زياد » الأشراف إليه

رغبة ورهبة .

وكذلك أخطأ « الحسين » حين قدر الخطوه أولاً ثم لم يقدر  
خطوه ثانياً ، ولكنه كان بعيداً عن موطن الفتنة ، وكان « مسلم »  
رسوله إليهما ، فله المُنذر إن استجاب .

ولقد أدرك « مسلم » وهو يساق إلى الموت ما جنت رسالته  
على « الحسين » ، فخلاً بابن الأشعث — وهو الذى  
أمّنه لما تقدم لك — يقول له : إني أراك ستعجز عن  
أمانى ، فهل تستطيع أن تبعث من عندك رجلاً يخبر  
« الحسين » بحالى ويقول له عني : ليرجع بأهل بيته ولا يَغْثَرَهُ  
أهل الكوفة ، فإنهم أصحاب أبيه الذين كان يتمنى فراقهم  
بالموت أو القتل ؟ .

وأدرك ذلك مرة ثانية ، وهو بين يدي « ابن زياد » وقد  
حلف ليقتلنه ، فطلب منه أن يدعه يُوصى إلى بعض قومه ،  
فخلاً « مسلم » بـ « عمر بن سعد » يقول له : إن بيني وبينك قرابة ،  
ولى إليك حاجة ، وهى سرّ .

وهنا يحجم « عمر بن سعد » عن أن يسمع من « مسلم » :

فهمو في موقفه هذا أعجز من أن يحتمل أمانة السر ،  
و « ابن زياد ، حاضر و سامع ، فإما أن يكتمه عن « ابن زياد ،  
فيعرض نفسه للتلف ، وإما أن ينبيء به « ابن زياد ، فيكون  
قد خان أمانته ، وما هي بالهينة على رجل ذى مروءة  
كـ « عمر بن سعد » .

ولكن « ابن زياد ، كان في هذه المرة رفيقا ، أو قل داهية  
ما كرا ، فهو لم يُرد أن يمضى « مسلم » بهذا السر الذى قد  
يُسفيد هو منه ، فما عليه أن يرخصى له ليقول ، وما عليه بعد ذلك  
إلا أن يشتد بـ « عمر بن سعد » حتى يقول : لهذا قال « ابن زياد ،  
لـ « عمر بن سعد : لا تمتنع من حاجة ابن عمك ... !

عندها لم يَسْقُوتَ « عمر بن سعد » أن يرفض ، وإلا  
كان مقصرا في شأن ابن عمه ، بخالفا عن أمر « ابن زياد ،  
فاختلى ، بمسلم يسمع منه ، وإذا « مسلم » يقول له : إن  
على الكوفة ديناً استدنته منذ قدمت الكوفة ؛ سبعمائة درهم ،  
فاقضها عني .

ووجده « عمر بن سعد » سرأ هيئنا ليس عليه بأسٌ إن

اكتمه ، فاطمأن .

وكان يظن « مسلم بن عقيل » قد انتهى عند هذه ، فإذا هو يقول له : وانظر جثتي فاستوهبها فوارها .

ويعرف « عمر بن سعد » — وكان رجلاً ذا بصر — أن حقد « ابن زياد » أبدي من أن يعرف مثله مداه ، وأنه أضعف من أن يدخل بين « ابن زياد » وبين ما يريد ، فيتملبل . « عمر » ولا يدعه « مسلم بن عقيل » يقول شيئاً ؛ بل يمضى يقول : وابعث إلى « الحسين » من يرده .

هنا يفيق « عمر بن سعد » على ما خشيه أولاً ، ويجد أمانته في كفة وحياته في كفة أخرى ، ولكنه رأى أنه إن هو قام بأمانته لم يُغن شيئاً عن « الحسين » ولا عن نفسه . وإن هو خاها وصارح « ابن زياد » بما قال « مسلم » فقد يحفظ على « الحسين » حياته وعلى نفسه حياتها .

وقد كان ما قدر « عمر بن سعد » وإن لم يكن كحل ما قدر كان ، فما إن صارح « ابن زياد » بما قال « مسلم » حتى قال « ابن زياد » لمسلم : لا يخونك الأمين ، ولكن قد

يؤمن الخائن . أما مالك فهو لك تصنع به ما شئت . وأما الحسين  
فإن لم يُردنا لم نرده ، وإن أرادنا لم نُكف عنه ، وأما جثتك  
فإننا إذا قتلناك لا نبالي ما يُصنع بها .

\*\*\*



إذن لم يكتب « عمر بن سعد » إلى « الحسين » ، كما طلب منه « مسلم » ، ولكن كتب إليه « ابن الأشعث » كما أراد منه « مسلم » ويلقى رسول « ابن الأشعث » « الحسين » فيخبره فلا يثنيه هذا ، وهو يظن أن إجابة « مسلم » فيما كتب إليه أولا أولى به .

وكأنى بالحسين لم يكن عليه غير أن يجيب ، وإلا فقيم كان امتناعه على « يزيد » بالبيعة ؟ وفيم كان إرساله « مسلم بن عقيل » قبله يتحسس له ؟ وفيم كانت هذه الشائعات التي ملأت عليه الآفاق ؟ ... وفيم كان تعريضه أنصاره يلقون ما لقوا وهو عنهم بعيد ؟ ...

إلا أنه لو استجاب للثانية لاشتهم في عزمه ، ولاشتم في شجاعته ، ولقضى على ما يملك في القلوب ، ولفرض الداس من حوله إلى آخر الدهر . فما عليه إذا مضى ، ولكنه ملوم إن قعد . أو ليس الذى خرج له حقا ليس له وحده ؟ ولكنه للبيت الذى ينتمى إليه ، وإن هو ارتد واستكان ، كما ارتد أخوه

« الحسن » فست في عضد آله ، وفست في عضد الناس من سؤل آله  
ولكنه إن مضى على وجهه فلا يبعد أن يظهر بحقه ، أو يموت  
فيترك آله على هذا الحق ، والناس من حولهم لا يرجعون .  
على هذا صمم « الحسين » ، وبهذا أجاب رسول « ابن الأشعث »  
إليه يقول له : كل ما قدر نازل ، وعند الله نكتب أنفسنا .

\*\*\*

ولكنه قد كان إلى جنب « الحسين » بمسكة قوم مشيرون  
ناصحون ، يعزّ عليهم أن يمضى « الحسين » إلى وجهه لا يؤمن  
عليه فيه التلف .

فيأنيه « عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام » ، فيقول  
له : « إني أتيتك لحاجة أريد ذكرها نصيحة لك ، فإن كنت ترى  
أنك مستنصحى قلتها . وأدّيت ما على من الحق فيها ، وإن ظننت  
أنك غير مستنصحى كففت عما أريد ،

فيقول له « الحسين » : « قل ، فوالله ما أستغشك ، وما أظك  
بشيء من الهوى » .

فيقول له « عمر بن عبد الرحمن » : « قد بلغني أنك تريد

العراق ، وإني مُشفق عليك ، إنك تأتي بلدا فيه عُماله وأمرأؤه ،  
ومعهم بيوت الأموال ؛ وإنما الناس عبيد الدينار والدرهم ، فلا  
آمن عليك أن يقاتلك من وعدك نصره ، ومن أنت أحب إليه  
عن يقاتلك معه . »

فيقول له « الحسين » : « جزاك الله خيرا يا بن عم ، فقد علمت  
أنك مشيت بنصح ، وتكلمت بعقل ، وقد آخذ برأيك أو أركد  
فأنت عندي أحمد مُشير وأنصح ناصح .

\* \* \*

ويأتيه « عبد الله بن عباس » فيقول له : « قد أرجف الناس  
أنك سائر إلى العراق ، فبين لي ما أنت صانع ؟ ... »  
فيقول له « الحسين » : « قد أجمعت السير في أحد يومى هذين  
إن شاء الله تعالى .

فيقول له « ابن عباس » : « فإني أعيذك بالله من ذلك ، خبّرني -  
رحمك الله - : أتسير إلى قوم قتلوا أميرهم ، وضبطوا بلادهم ،  
ونفخوا عدوهم ؟ فإن كانوا فعلوا ذلك فسير إليهم ، وإن كانوا  
إنما دعوك إليهم وأميرهم عليهم قاهر لهم ، وعُملهم تبحر

بلادهم ؛ - فإنما دعوك إلى الحرب ، ولا آمن عليك أن يغروك  
ويكذبوك ويخالفوك ويخذلوك ، ويُستنفروا إليك ، فيكونوا أشد  
الناس عليك .

فيقول الحسين : فإنى أستخير الله وأنظر ما يكون .  
ويأتيه « ابن الزبير » فيحدثه حديثا غير حديث هذين اللذين  
سبقاه ، يحدثه حديثا يحفز به شينا ويردّه شيئا ، فيقول له : ما أدرى  
كيف تركنا هؤلاء القوم وقد كففتنا عنهم ونحن أبناء  
المهاجرين ، وولاية هذا الأمر ، خبرني ما تريد أن تصنع ؟  
فيقول له الحسين : لقد حدثت نفسى بأنى الكوفة ، ولقد  
كتبت إلى شيعتى بها وأشرف الناس ، وأستخير الله .  
فيقول له ابن الزبير : أما لو كان لى بها مثل شيعتك  
ما عدلتُ عنها .

و « ابن الزبير » ذو غرض ؛ يريد أن يبعد « الحسين » عن  
مكة ليخلو له الجوبها ، وكأنه أحس ذلك فى وجه « الحسين »  
وخشى أن « يتهم فيما قال » ، فعاد يقول : لو أقمّت بالحجاز ثم أردت  
الأمر ها هنا ما خالفنا عليك ، وساعدناك وبايعناك ونصحنا لك .

وكأنه أراد أن يطمئن ما « الحسين » فاعل ، وأنصت يستمع إلى « الحسين » يجيب جوابا ما كان أحرصه على أن يبلغه ، فإذا « الحسين » يقول : « إن أبي حدثني أن لها كبشا ، به تستحل حرمتها ، فما أحب أن أكون ذلك الكبش » .

وهنا يطمئن « ابن الزبير » أن « الحسين » خارج لا محالة ، وكأنه أراد أن يضم إلى هذا المغنم الذي وقع له مغنما آخر فقال له : إن شئت توليني أنا الأمر ، فقطاع ولا تعصى .

ولكن « الحسين » كان أدري بما يريد « ابن الزبير » ، كان « ابن الزبير » يريد أن يكون صاحب بعض الأمر حياة « الحسين » ، وصاحبه كله إن مات « الحسين » ، وما كان « الحسين » ذا غفلة ، يغلبه « ابن الزبير » على حقه في هذا اليأس وتلك السهولة ، فالتفت « الحسين » إلى « ابن الزبير » وهو يقول : ولا أريد هذا أيضا .

\*\*\*

وخرج « ابن الزبير » عن « الحسين » وقد اطمأن إلى شيء ولم يطمئن إلى شيء ، وابتغت « الحسين » إلى الناس من حوله

يقول لهم : أندرون ما يقول هذا ؟

فيقول الناس : لاندري ، جعلنا الله فداك .

فيقول الحسين : إنه يقول : أقيم في هذا المسجد أجمع لك  
الناس ، والله لأن أقتل خارجا منها بشبر أحب إلى من أن أقتل فيها ،  
ولأن أقتل خارجا منها بشبرين أحب من أن أقتل خارجا منها  
بشبر . وايم الله لو كنت في حجر لاستخرجوني حتى يقضوا  
بي حاجتهم .

ويطرق « الحسين » ثم يقول : إن هذا - يعني ابن الزبير -  
ليس شيء من الدنيا أحب إليه من أن أخرج من الحجاز ، وقد  
علم أن الناس لا يعدلون بي ، فودّ أني خرجت حتى يخاوله .

لقد علم « الحسين » أن الحجاز يضم حوله أهل الرأي، ولكنه لا يضم حواه أهل الحرب، ولقد علم « الحسين » أن أهل الرأي لا يغنون في مثل تلك الفتنة قدرا يُغنى أهل الحرب؛ لهذا كان عزمه على أن يخرج إلى العراق ويترك الحجاز، ثم هو إذا كسب العراق بأهل الحرب فسوف يكسب الحجاز بأهل الرأي، وما عليه أن يُخلى الحجاز إلى حين .

ولقد علم أهل « الحسين » أنه ما بقى في الحجاز فهم ضامنون بحياته شيئا؛ وإن قل، وأنه إن خرج إلى العراق فهم متوجسون أن يُخذل « الحسين »، فيموت عليهم ذلك القليل الذي قد ينمو مع الزمن . من أجل ذلك عاد إليه « ابن عباس » يقول : إني أتصبر ولا أصبر؛ إني أخوف عليك في هذا الوجه الهلاك والاستئصال . إن أهل العراق قومٌ غدر فلا تسقر بهم ، أقيم في هذا البلد فإنك سيد أهل الحجاز ، فإن كان أهل العراق يريدونك — كما زعموا — فاكتب إليهم فلتسيفوا عاملهم وعهدهم ، ثم اقدم

عليهم ، فإن أبيت إلا أن تخرج فسر إلى اليمن ، فإن بها حصونا  
وشعاباً ، وهى أرض عريضة طويلة ، ولأبيك بها شيعة . وأنت  
عن الناس فى عزلة ، فتكتب إلى الناس ، وترسل رسلك وتبعث  
دعائك ، فإنى أرجو أن يأتىك عند ذلك الذى تحب  
فى عافية .

فيقول له الحسين : يا بن عم ، إني والله لأعلم أنك ناصح مشفق ،  
وقد أزمعت وأجمعت المسير .

\* \* \*

وهكذا ترى الرأى قد اختلفت وجوهه :

فالحسين ينظر إلى الدعوة ولا ينظر إلى نفسه ، لا يرى  
أن ينسكل عن أنصاره وقد أثارهم ، فلا يجدهم بعدد معه إن  
حاول أن يُشيرهم .

ويرى أن هذا الأمن الذى ينشدونه له لن يغنى إلا  
هؤلاء المشيرين من حوله ، يأنسون به حياته وادعين  
مطمئنين ، واسكنه سوف ينفذت فى عضد أنصاره ، ويخمد جذوة  
هذا الحق فى نفوسهم ، كما أخذتها مهادنة أخيه « الحسن » لمعاوية .



ويرى أن أباه حين ولّى مقتولا كان خيرا من أخيه حين ولي  
غير مقتول .

ويرى أن الثورة لا بد لزعيمها من أن يركب الصعب ،  
لا يختاط حتى يُستقيم مَنْ بعده على ركوبه ، وأنه إن هو حمل  
اليسير فيها حملوا هم ما هو أيسر منه ، وانكفتوا لم يحققوا شيئا .  
ويرى أنه يدبر لمن بعده ، فلا عليه أن يمضى هو بالغرم  
ليكون لمن بعده الغنم .

وكان « ابن عباس » يرى أن « الحسين » إن فاتهم فقد فات  
الدعوة من يحمل رايتها .

ويرى أنهم به مُحتَمون ؛ فإن هو قُتل هان قتلتهم إلى أعدائهم .  
ويرى أن الدعوة لمّا تستقيم في النفوس ، لمّا يعلمه عن  
أهل العراق — وهم أكثر الناس إيمانها كما يبدو — وأن بقاء  
الحسين ، داعيا فيه ما يكفل لهذه الدعوة الدخول إلى القلوب لتبناها  
ويرى أن بقاء « الحسين » لهذه خير له ولهم من ذهابه ،  
والنفوس لم تتصل بالدعوة اتصالا قويا .

ولكن الأمر سيمضى على ما رأى « الحسين » لا على ما رأى  
 « ابن عباس » ، فلم يجد « ابن عباس » جديداً يثنى به « الحسين »  
 عماراً ، ولكنه أحب أن يدخل إلى قلبه من باب آخر ، فقال  
 له : إن كنت سائراً فلا تسر بنساءك وصبيبتك ، فإنى لخائف  
 أن تُقتل كما قتل عثمان ، ونساؤه وولداه ينظرون إليه .  
 وجد « ابن عباس » هذه لا تهول « الحسين » ، فيأخذ في  
 أخرى ويمضى يقول له :

لقد أقررت عين « ابن الزبير » بخروجك من الحجاز  
 وهو اليوم لا ينظر إليه أحدٌ معك .

فلا يلين له « الحسين » . ويلتفت إليه « ابن عباس »  
 مغضباً ، وكأنه هم أن يخرج عن القول إلى فعل ، ولكنه قبل أن  
 يفعل أحب أن يتبين أثر ما سوف يفعل في نفس « الحسين » إن  
 هو فعل . فقال له : والله الذى لا إله إلا هو ، لو أعلم أنى أخذت  
 بشعرك وناصيتك — حتى يجتمع علينا الناس — أطعنى فأقت

أفعلت ذلك .

فيجد « الحسين » قد كاد يُنكرها عليه ، فيسكن متخاذلا ،

ويقوم عنه وهو يردد : قرّت عينك يا « ابن الزبير » ثم ينشد :

يا لك من قُنبرة بمعمر      خلا لك الجوف بيضى وأصفرى

ونقّرى ما شئت أن تُنقري

لا بد يوما أن تصحّادى فاصبرى

ثم يقول — وكأنه يخاطب ابن الزبير — : هذا الحسين

يخرج إلى العراق يخليّك والحجاز .

ويخرج « الحسين » من مكة في طريقه إلى الكوفة فيمر  
 بالأنعم ، وهناك باقى عيراً قد أقبلت من اليمن ، بعث بها إلى « يزيد »  
 عامله عليها ، فيأخذها « الحسين » ويقول لأصحاب الإبل : من  
 أحب منكم أن يمضى معنا إلى العراق أو فينا كراهة أو حسناً صحبته ،  
 ومن أحب أن يفارقنا من مكاننا أعطيناه نصيبه من الكيراء .  
 ففارقه منهم أناس فأعطاهم حقهم ، ومضى معه أناس فأعطاهم  
 كراهم وكسأهم .

\* \* \*

غرض خرج إليه « الحسين » ولم يملك له أهبة ، فكل  
 ما وقعت عليه يداه من مغنم فهو أهبة إليه ، وعامة الناس في  
 ذلك بين يدي فتنة يريدون أن يخرجوا منها إلى مأمن ، يحسبونه  
 هنا فيميلون ، ويحسبونه هناك فيمضون ، ويغلبهم على أمرهم هذا  
 فينصاعون ، ويسوقهم إليه ذاك فيخرجون ؛ لأنهم لم يكن لهم  
 رأى يدبرونه ، ولا كلمة يجتمعون عليها .

ويمضي «الحسين» بمن معه حتى يباغ «الصفاح» فيلقاه الفرزدق الشاعر، وقلبه مع «الحسين» ، فدعوه وهو يقول : أعطاك الله سؤالك وأملك فيما تحب .

ويأنس به «الحسين» فيقول يسأله : يمين لي خبر الناس خلفك .

فيقول الفرزدق : على الخير وقعت ، قلوب الناس معك ، وسؤوفهم مع بني أمية ، والقضاء ينزل من السماء ، والله يفعل ما يشاء .

ولقد صدق الفرزدق شيئاً ، وإن كان لم يباغ الصدوق كلمة . فما دخل الإيـان بهذه الدعوة قلوب الناس فاستوعبها ، ولو صح لكانت سيوفهم طوع قلوبهم ، ولكنه كان إيماناً لما يستوعب القلوب ، لهذا كانت القلوب ناحيةً والسيوف ناحيةً أخرى .

\* \* \*

ولكن «الحسين» كما قلنا غير راجع ، فيقول للفرزدق : صدقت ، لله الأمر ، يفعل ما يشاء ، إن نزل القضاء بما نحب

فحمد الله على نعمائه ، وهو المستعان على أداء الشكر ؛ وإن  
حال القضا دون الرجاء ؛ فلم يعتمد من كان الحق نيته والتقوى  
سريره .

\*\*\*

ويمضى « الحسين » فى طريقه فيُدركه ولدا « عبد الله  
أبن جعفر » : عدن ومحمد ، بكتاب أبيهما إليه يقول له فيه : « أسألك  
بالله لما انصرفت حين تقرأ كتابي هذا ، فأني مشفق عليك  
من هذا الوجه أن يكون فيه هلاك واستئصال أهل  
بيتك ، وإنك إن هلكك اليوم طففى نور الأرض ، بإيك علم  
المهتدين ، ورجاء المؤمنين ، فلا تعجل بالسير . »

ولا يجتزئ « عبد الله بن جعفر » بهذه ؛ بل يسعى إلى  
« عمرو بن سعيد بن العاص » ، وكان أميراً يزيد على الحجاز ،  
فيقول له : اكتب للحسين كتاباً تجعل له الأمان فيه ونمّنيه  
فيه البر والصلة ، واسأله الرجوع .

ويستجيب عمرو ، لـ « عبد الله » ، ويرسل بهذا الذى طلب كتاباً  
يبعثه إلى الحسين ، يحمله إليه أخوه « يحيى بن سعيد » ، و معه

« عبد الله بن جعفر » .

ويدركه « يحيى بن سعيد » ، و « عبد الله بن جعفر » ببعض الطريق ، ويقرآن عليه كتاب « عمرو بن سعيد » ، ويجهدان معه ليحملاه على أن يرجع ، فلا يفعل .

فلقد امتلأت نفس « الحسين » بغرضه الذي خرج يسعى إليه ، لم يَعُدْ يقوى صارف أن يصرفه عنه ، حتى لقد رأى نفسه بين يدي هذا الغرض مأمورة ، يُملى عليها عقله الباطن ، وتوحي إليه الرؤى ، وما كان لمثل « الحسين » أن يتنكر لما يُمليه عليه عقله الباطن ، أو أن يخالف عن تلك الرؤيا التي رآها ، فقد رأى أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يأمره بأمر يفضى له ، ففضى لهذا الأمر الذي أمره به رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرجع عنه .

وإن كان لم يُفصح للناس عنه حين سألوه : ما تلك الرؤيا .

فقال : ما حدثت بها أحداً ، وما أنا بُمحدث بها أحداً حتى أتى ربي .

صدق « الحسين » فيما رأى ، وصدق رسول الله  
صلى الله عليه وسلم فيما ألهم ، فلقد كان « الحسين »  
مَسْوقاً إلى قضاء الله وقدره ، وما هو بمستطيع أن يهرب  
من قضاء الله وقدره .





هذا ، و « الحسين » لما يباغته مقتل ابن عمه « مسلم بن عقيل »  
ولما يبلغه مقتل « هاني » .

أما ثانيها فأهله وذووه في الكوفة ، وقد عرفت من أمرهم  
ما كان .

وأما أولها فأهله وذووه حول « الحسين » وما أظنك ستسمع  
منهم غير كلمة النار ، تجري حارّةً على ألسنتهم ، وتحقق بها  
قلوبهم .

فما كان « مسلم بن عقيل » هيناً على أهله وذويه ، وما كان  
« مسلم بن عقيل » هيناً على « الحسين » ، وما أبعد « الحسين »  
ولا أبعد آل « مسلم بن عقيل » عن الجاهلية كثيراً فينسوا الوتر  
وينسوا النار .

فانضم هذا إلى ما عند « الحسين » من عزم أخير على أن  
يسير ، على الرغم من تشديد نفر من أصحابه ، كانوا من أنصاره  
ولم يكونوا من أهله ، فعز عليهم مقتل « مسلم » واسكنه هاهنا هذا العزم

خافوا وتعلّقوا بالحسين يرجونه ألا يمضى .  
ولكنهم على هذا كانوا يُشفقون للموتورين من آل  
« مسلم » فلما رأوا رأيهم حين أشاروا ، ولم يملكوا قلوبهم حين  
وَجِدَتْ على القَتيل ، وحين رثت للموتورين ، لهذا لم يُغن  
رأيهم شيئاً ، وغلبتهم كلمة « الحسين » على هذا الرأي حين سمعوه  
يقول : لا خير في العيش بعد هؤلاء . وغلبتهم على رأيهم كلمات  
أخرى صاح بها نفر من الموتورين ومن غير الموتورين ، وهم  
يقولون للحسين : ما أنت مثل « مسلم بن عقيل » ولو قدمت  
الكوفة لكان الناس أسرع إليك .

• • •

ومضى « الحسين » لا يمر بماء إلا اتبعه من عليه ، فإذا هو  
كثير الجند بمن انضم إليه ، وإذا هذه الكثرة المضمة ترد أصحابه  
المتهيئين إلى إقدام ، وتزيد أصحابه غير المنردّدين إقداماً .  
وإذا حادثة أخرى تنضمّ إلى ما كان فتناع ما بقى من تهيب  
في نفوس هؤلاء الميثيين ، وتملاً للوب غيرهم حماساً .  
فقد كان « زهير بن القين البجلي » خرج للحج — وكان

عثمانيا — فلما عاد من حججه جمعه و « الحسين » الطريق ، وكان يسائر الحسين إلا أنه لا ينزل معه ، واستدعاه « الحسين » فلم يجبه ، ثم أجابه على كثره منه .

وإذا هو حين خرج من عند « الحسين » يدعو أصحابه إليه يقول لهم : « من أحب منكم فليتبغني ، وإلا فإنه آخر العهد به وسأحدثكم حديثا : غزونا بـ « بلنجر »<sup>(١)</sup> ، ففُتِح علينا وأصبنا غنائم ففرحنا . وكان معنا « سلمان الفارسي » فقال لنا : إذا أدركتم سيد شباب أهل محمد فكونوا أشدَّ فرحاً بقتالكم معه عما أصبتم اليوم من الغنائم ؛ فأما أنا فاستودعكم الله . ثم طلق زوجته وهو يقول لها : الحق بأهلك ، فإني لا أحب أن يُصيبك في سببي إلا خيرا . ولزم « الحسين » .

وهكذا مضى « الحسين » بمن معه قد نسوا كل ما بدا لهم من رأى صارف ، وامتلات نفوسهم بكل ما يذفهم إلى القتال دفعا ، لا يثنيهم بعده هذا من يعرض لهم ببعض الطريق يلفتهم عما عقدوا عليه النية ، إلى ما نسبوه وراءهم ظهرياً .

كذلك الذى كان من « عبد الله بن مطيع » حين لقي « الحسين » فى طريقه إلى الكوفة على ماء من مياه العرب ، فتعلق به يستحلفه وهو يقول له : بأبى أنت وأخى يا بن رسول الله ، ما أقدمك ؟ ... أذكرك الله يا بن رسول الله وحرمة الإسلام أن تُنهنك ! ... أنشدك الله فى حرمة قريش ! ... أنشدك الله فى حرمة العرب ! ... فوالله لئن طلبت ما فى أيدي بنى أمية ليقمتنك ، واثن قتلوك لا يهابون أحداً أبداً ، والله إنها لحرمة الإسلام ، وحرمة قريش ، وحرمة العرب ، فلا تفعل ولا تأت الكوفة ولا تعرض نفسك لبنى أمية .



كلمة لو قيلت قبل اليوم لو جدت أذنا صاغية ، ولما كانت إلى كلمة « ابن عباس » — التى مرت بك — ذات صدق ، فلقد كان أخوف ما يخافه « ابن عباس » ، وأخوف ما يخافه « زهير بن القين » أن يعضى « الحسين » مقتولا ، فلا يجد الهاشميون ومن إلى الهاشميين رجلاً قوياً يلتفتون حوله .

ولقد كان أخوف ما يخافه « ابن عباس » ، وأخوف ما يخافه

« زهير ، أن يهون أشراف الهاشميين وغير الهاشميين من أتباعهم  
على بنى أمية ؛ فلا يعبتون بعدها بمن يقتلون .  
ولكن الناس — كما قلت لك — لم يعد لهم رأى يُقبلونه ،  
ولمّا أصبحوا بين يدي ثار يسمعون إليه ، وقد أصبحوا قوة بمن  
انضموا إليهم ، وأصبحوا أقوياء بما قرّ في آذانهم وانتهى إلى  
قلوبهم من كلام « زهير بن القين البجلي » .

\* \* \*

ويكتب « الحسين » إلى أهل الكوفة يخبرهم بمقدمه عليهم  
ويستأنسهم ، ويبعث إليهم كتابه هذا مع رسول له هو « قيس  
ابن مسهر الصيداوى » .

ولكن الرسول يُقبض عليه فى الطريق ، ويُسلبه القابضون  
عليه إلى « ابن زياد » — وكان « ابن زياد » قد فرق شرطته فى  
الطرق المفضية إلى الكوفة ، حين بلغه خروج « الحسين » إليه .  
وكأنى بك تسألنى ما فعل « ابن زياد » بالرسول ؟ ... وكأنى  
بك قد نسيت — وأنت تسأل — ما عرفت عن عنف « ابن زياد »  
وقسوته وفحشه ، إلا أنى لا أحب أن أغيب عنك شيئاً من عنف  
« ابن زياد » وقسوته وفحشه ؛ لتكون معى غير شاك فيما  
وصفناه به .

فلقد أمر « ابن زياد » رسول « الحسين » هذا أن يصعد  
القصر فيسب الكذاب ابن الكذاب « الحسين بن على » .  
فيصعد الرسول القصر — وابن زياد يظن أنه قد ائتمروا

بأمره — فإذا الرسول يعلن بصوته المدوّى : « إن هذا الحسين ابن علي ، خير خلق الله ، ابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا رسوله إليكم ، وقد فارقتك وهو منكم غير بعيد ، فأجيئوه » .

كلبة جريئة يُمليها قلبُ شجاع . لو جرت على لسان غيره من وقعُوا في يدي « ابن زياد » من قبل لغيرت مجرى الحوادث ، ولدفعت الناس الذين أظلمهم « ابن زياد » وهم له مهتَبُونَ ، إلى العناد عليه والوقوف في وجهه ، ولكنها جاءت متأخرة حين امتلأت القلوب هيبة من « ابن زياد » وخوفاً منه .

والقد أحسها « ابن زياد » مقلقة ذات خطر ، وأحس إن هو قوتها بعقوبة رقيقة عادلة أحييت في القلوب ما أماته هو بأسلوبه القاسي العنيف ، واقتلعت ما غرس من أصوله .

لهذا التفت « ابن زياد » إلى جنده ، لم يفكر إلا في مادبره . لهذا الرسول من عذاب شديد ، وهو يقول لهم آمرا : ارموا به من أعلى القصر .

فإذا هذا الرسول على الأرض وقد تقطّع جسمه إربا إربا .

وقد غرق في دمه .

. . .

لم يفعل هذه وحدها « ابن زياد » بهذا الرسول ؛ بل فعلها  
برسول آخر للحسين ، وكان هذا الرسول أخا للحسين من  
الرضاعة ، وهو : « عبد الله بن بقطر » .

وكما وقع « قيس بن مسهر » في يدي « ابن زياد » وقع « عبد الله  
ابن بقطر » في يديه ، وكما أمر « ابن زياد » « قيس بن مسهر » أن  
يصعد فوق القصر فيلعن الكذاب ابن الكذاب ، أمر  
« ابن بقطر » أن يصعد القصر فيلعن الكذاب ابن الكذاب ، وكما  
كان من « قيس بن مسهر » كان من « ابن بقطر » ، وكما نكّل  
« ابن زياد » بـ « ابن مسهر » نكّل بـ « ابن بقطر » .

غير أن قتل « ابن مسهر » على هذه الصورة التي مرت بك جرى  
وكان المسمى فيها واحدا ، هو : « ابن زياد » ، ولكن قتل  
« ابن بقطر » جرى ، وقد انضم إلى الإساءة فيه مسمى آخر غير  
« ابن زياد » . فما أسرع ما يتعاون على الشر من تعمّر قلوبهم بالشر ،  
يسبقهم إليه أجرؤهم عليه ! ...



فلقد أدرك « ابن بقطر » الأرض وبه رمق ، بعد أن  
تكسرت عظامه . فإذا رَجُل من أتباع « ابن زياد » يسرع إليه  
لا ليخفف عن هذا الجريح أوعينه ، ولكن ليذبحه  
فيجوز عليه .

وإذا ما اتجه إليه نفر من الناس أنستهم الرحمة بالشقِّ المُعْتَنِي  
رهبة ، « ابن زياد » يلومونه ، استخزى بينهم وردّ عليهم يقول :  
لأنما أردت أن أريكم .

. . .

ولقد مر قتل « ابن مسهر » وما بلغ « الحسين » عنه شيء ؛  
ولكن مر قتل « ابن بقطر » وقد انتهى إلى « الحسين »  
عنه كل شيء .

عندها أدرك « الحسين » أن أخاه من الرضاة قد بلغ رسالته  
فوفّى ، وعندها أدرك « الحسين » أن شيعته بالكوفة قد بلغتهم  
الرسالة فلم يفعلوا شيئاً ، ففتّ ذلك في عضده ، والتفت إلى  
أصحابه وقد عزّ عليه أن يركب بهم طريقاً غير مأمون ، وأن يدفع  
بهم إلى مالا يأمنه عليهم فخرّكه الوفاء لمن معه ، والحرص على حياة

من شايعوه على أمره ، أن يخطبهم فيقول : « خذلنا شيعتنا ، فمن أحب أن ينصرف فليُنصرف ، ليس عليه منّا ذمام .

وكأنى بالحسين قد أحس من الأعراب حوله ما قد دار بخلد هم حين التفوا به واجتمعوا حوله ، وأنهم قادمون معه على بلد قد استقامت له طاعة أهله ، وإن هى إلاّ جولة أو اثنتان ، ثم ينقلبون بالخير الكثير والمغنم الواسع .

وكأنى بالحسين وقد خشى أن يعرف الناس فيما بلغهم من قتل « ابن بقطر » ، وتخاذل الشيعة ما يفرعهم ، فيرتدون عنه عن غير أمره ، مشفقين من هذه الحرب التي هم مستقبلوها نكرها . وقد ظنوها ليس فيها غناء .

وكأنى بالحسين وقد أراد أن يكون الناصح الأمين : كما هو العهد به ، لا يغترّ ولا يخذع : فأحب أن يكشف للناس معه عما سيُلاقون . ولقد صدق « الحسين » ، ظنّه ؛ فما إن قال ما قال حتى تفرّق هؤلاء الذين التفوا حوله راغبين فيه شيئا ، وطامعين في المغنم شيئا ، فإذا حياتهم أغلى عليهم من هذه الرغبة وذلك الطمع ، ومضى « الحسين » إلى طبيئته بمن بقى معه من أصحابه الذين خرجوا معه من مكة .

لقد كان الحسين ، غير هؤلاء جميعا ، يؤمن أنه مقبوم  
 نفسه في شر كبير ، ولكنه يؤمن معه بأنه بين يدي واجب  
 كبير ، ويؤمن بأن شيعته قد اتخذوا ؛ ولكنه يؤمن مع ذلك  
 بأن عليه أن يلقاهم ، عسى أن يغني هذا اللقاء فيوضه ما فات ، ثم  
 هو — كما قلت لك — مدفوع إلى ذلك دفعا ، يستجبه قضاء الله  
 وقدره ، إلى حيث يكرن قضاء الله وقدره .

لهذا لم يسمع الحسين إلى هذا العري الذي لقيه غير بعيد  
 من الكوفة ، وكان على علم بما أعد القوم له ، وكان على علم  
 بما انتهى إليه أمر الشيعة ، فقال : أنشدك الله لما انصرفت ،  
 فوالله ما تقدم إلا على الأسنة وخذ السيوف ، وإن هؤلاء الذين  
 بعثوا إليك لو كانوا كفوك مؤونة القتال ، ووطئوا لك  
 الأشياء فقد دمت عليهم ؛ — لكان ذلك رأيا ؛ فأما على هذه الحال  
 التي تذكرها فلا أرى لك أن تفعل .

فما كان جواب الحسين إلا أن قال : إنه لا يخفى على

ماذكرت ، ولكن الله عز وجل لا يُغلب على أمره .

\* \* \*

ويمضي الحسين على رأس جيشه المكدود ، أما عن عناء السير ومشقة السفر فلا تبالى الجيوش كم تجشمت ، وكم أياما طوتها على الجوع والظما ، وكم جرعة كدرة ارتشفت ، ولقمة قدرة أكلت ، كما لا يشفق قادة الجيوش بما يعاني الجسد من هذا كله ؛ اللهم إلا أن يجرهم إلى متلفة . فلذلك كله خلُص الجندى ، وعلى هذا كله يُمَرَّس الجندى .

أما الذى يدخل على الجيوش فيؤوهن من بأسها ، ويفل من عزِّها ، ويُرد النفوسَ جزعة ، والقلوب هلمعة ؛ - فذلك هو ماتخشاه الجيوش ، ويخشاه قبلها قادتها .

ولقد دخل على جيش الحسين من هذا كله شيء كثير ، فنذ غادر هذا الجيش المدينة يقصد قصْد مكة ، وهو بين فتن هو جاء ، وآراء مضطربة ، وكلمات موزعة ، لا يكاد يجتمع على شيء إلا بداله غيره ، ولا يكاد يمسك بما بداله حتى يرتد إلى ما ترك ، وإذا هو آخر الأمر يضرب فى الأرض بخطى

ثقيلة ، وعقول موزعة ، ونفوس مبليلة ، لا يدري ما هو ملاق  
في يومه ، ولا ما هو مستقبل في غده . ثم هو أجمل ما يكون بما  
عبأه له « ابن زياد ، وما أعدّ له .

ليست له طليعة كاشفة ، ولا عيون راصدة ، ولا أدلاء  
هادون ، كما ليس له مُستمد من عتاد ، ولا مُدّخر من زاد ،  
ولا خُطة في إقبال ولا إدبار .

تحس ذلك جلياً حين أدرك هذا الجيش « شراف » مع منتصف  
النهار ، وقد غطّت الشمس الأرض فكشف لهم عن كل ما عليها ، وإذا  
رجل من جيش الحسين يسكب ، وإذا أصحابه يفزعون إليه يستوخطونه  
لم كان تكبيره ؟ فيقول : إني أرى نخلا — يعني أنهم قد أشرفوا  
على الريف ، وهذه نخلاته ليس بينهم وبين أن يصيوا من ثمرها  
إلا خطوات ويعني هذا الرجل أنهم قد أشرفوا على حدود العراق ،  
وهم على أن يدخلوه دون أن يلقوا كيذا .

فيقف إليه رجلان من بني أسد ، كما على علم بمواقع الأقدام  
« فيقولان ، نحن في أرض لا عهد لها بنخل قط .

وعندها تشرئب عتق « الحسين » ينظره وتشرئب أعناق القوم

ينظرون ، فإذا مارآه هذا الرجل نخلا إنما هو خيل العدو : وهذه  
هو اديها تهتز على صفحة البيداء ، فيخيّل الجوع شيئا ، ويخيّل اليأس  
شيئا ، فيحسبون أنهم أدركو الريف ، وأنهم على أبواب العراق .  
وهنا يقف هذا الجيش المكدود ليستقبل جديدا لم يكن في  
حسابه ، يصحو عليه كما يصحو النائم المفزع ، لا يدري أهو لا يزال  
موصولا بنومه ، أم هو قد استيقظ منه .

ويلتفت الحسين إلى هذين الرجلين الأسديتين ليستشيرهما ،  
وقد عرف ما عندهما من خبرة ، وهو يقول لهما : وهل لنا  
من ملجأ نلجأ إليه نجعله في ظهورنا فنستقبل القوم من  
وجه واحد ؟

فيدلانه على جبل إلى جنبه عن يساره ، وسرعان ما مال  
إليه « الحسين » بمن معه ، وسرعان ما تبعهم خيل العدو إليه  
فكانوا تلقاءهم .

. . .

ولم يكن هذا الجيش الذي خرج للقاء « الحسين » من  
الكوفة ينتظم غير أهل الكوفة ، ولم يكن قائد هذا الجيش

الذى خرج على هذا الجيش من الكوفة إلا رجلا من أشراف الكوفة .

ترى أين هم شيعته الذين كاتبوه ؟ ... وترى أين هم جنده الذين خرج ليلقاهم ليعينوه ؟

إنهم كانوا لا شك من أهل الكوفة ، وهام أولاء أهل الكوفة أمامه ، ولكنهم جاؤوه حربا عليه لا مددا له .

ولكن ما باله لا يلقاهم فيذكّرهم بما كان منهم إليه ، فقد يكون « ابن زياد » الشبههم عليه وغيرهم عمّا يؤمنون به ، وبذل لهم ما يفسد نفوسهم .

وعلى هذا صم « الحسين » ، فخرج إليهم بخطبهم وهو يقول :  
« أيها الناس ، إنها معذرة إلى الله وإليكم ، إنى لم آتكم حتى أتنى كتبكم ورؤساكم أن أقدم إلينا ، فليس لنا إمام ، لعل الله أن يجعلنا بك على الهدى . وقد جئتكم ، فإن تعطوني ما أطمئن إليه من عهودكم أقدم مصركم ، وإن لم تفعلوا وكنتم بقدسي كارهين انصرفت عنكم إلى المكان الذى أقبلت منه . »

وينبرى له « الحُرُّ بن يزيد التيمي » قائد هذا الجيش الكوفى

إليه — يقول : إنا والله ما ندرى ما هذه الكتب والرسائل التي تذكر .

عندها يُخرج « الحسين » ، خرجين مملوءين صحفا ، فينثرها بين يدي « الحر » ، والقوم ينظرون .

فيقول له « الحر » ، في حزم ، وكأنه لم ير شيئا : فأنا لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك .

\*\*\*

موقف جديد غير ما سبقه من مواقف ، ما كان أولى « الحسين » أن يفقه منذ أن فكّر في الأمر ، ومنذ أن كانت له عليه عزيمة .

ولكن الأمور — كما تبين لك — مرت عجلة مضطربة ، يدفع إليها أملٌ أولا ، ويُنهض إليها حقٌ ثانيا ، وتسوق الأحداث مع هذا وذاك ما يحفز إلى هذا الأمل وذاك الحق ، وما يصرف عن هذا الأمل وذاك الحق ، ولكن النفوس ، إذا امتلأت به — هذا الأمل وتعلقت بذلك الحق كانت آبي على ما يصرفها ، وأُمّيل إلى ما يدفعها ، وكذلك كان الحسين .



ولكن « الحسين » في ساعته هذه بين يدي حقيقة مُرة تصرفه عن أمله وعن حقه ، وهو لا يملك أن يمضي ، ولكنه يؤثر أن ينصرف . ولقد خال إن هو فعل أنه صارف عنه عدوه ومُنصرف هو إلى حيث يريد .

ولقد كانت هذه هيئته على « ابن زياد » أن يُعطيا . ولكنه داهية محنك يعرف ما عند الهاشميين ولا يحمله ، ويعرف أن « الحسين » إن نجح من هذه فهو لا شك مدبر لغيرها ، وهو من أجل ذلك قد أوصى قائده ألا يدع « الحسين » يرجع ؛ بل يأتيه به .

وكان « الحسين » هو الآخر داهية محنك ، يعرف ما عند الأمويين ولا يحمله ، ويعرف إن هو أسلم نفسه إلى « ابن زياد » فقد قضى على دعوته أولا ، وقد يقضى على حياته ثانيا ، ولم تكن حياته إلى دعوته شيئا يأبه له الحسين ، ولكنه كانت دعوته إلى حياته هو ما يأبه له . من أجل ذلك أبى على قائد « ابن زياد » أن يمضي معه إليه ، وقال له بعد أن أخبره « الحر بن يزيد التميمي » بأنه غير تاركه حتى يقدم به على « ابن زياد » : الموت أدنى لك من ذلك .

ولقد هم « الحسين » لينصرف بجيشه ، فمنعه « الحر » . ولقد  
أغلظ « الحسين » للحر ، فلم يُغلظ « الحر » للحسين ، وما نظن  
القوم الكوفيين قد تجردوا عن كل ما يكون للحسين من  
تعظيمه ، وإن كانوا قد اضطروا أن يتجردوا عن غيره .

ولقد رفق « الحر » بالحسين يريد أن يرزقه الله فيما ابتلى به  
العافية ، ولقد رزق الله « الحر » هذه العافية فيما ظن ، وهو يشير  
على « الحسين » بأن يأخذ طريقا لا تدخله الكوفة ولا ترده إلى  
المدينة ، وهو يريد بذلك أن يكسب وقتا يكتب هو فيه إلى  
« ابن زياد » ، ويكتب « الحسين » فيه إلى « يزيد » أو « ابن زياد » ،  
لعل الله أن يأتي بأمر يكون فيه الفرج .

ويسير «الحسين» ويسايره «الحر»، و«الحسين» طامع في قلوب هؤلاء الجند الكوفيين الذين مضوا إلى جنبه يسايرونه، يخطبهم ويذكرهم وعودهم، ولكنه كان في خطبه هذه شديداً عليهم عنيفاً بهم، ولقد أثر له من قوله فيهم: «قد أتتني كتبكم ورسلكم ببيعتكم وأنكم لا تسلمونني ولا تتخذونني، فإن أقمتكم على بيعتكم تصيبوا رشديكم. وأنا الحسين بن علي بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، كفيت مع نفسيكم، وأهلي مع أهلكم. فلاكم في أسوة. وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدي وخلعتكم بيعتي فلعمرى ما هي ألكم بكير. لقد فعلتموها بأبي، وأخي، وابن عمي «مسلم بن عقيل»، والمغرور من اغتربكم فخطكم ونصيبكم ضيعكم، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه. وسيغني الله عنكم.

\*\*\*

وكلما تغن خطبته الأولى فيهم لم تغن خطبته الثانية، والقوم هم القوم مسيئون لا يخبرون، وقائدهم هو قائدهم مسير هو الآخر لا يخبر،

ويخاف أن يبلغ « ابن زياد » عنه أنه مال أو حاد أو قتر ، فيقول  
للحسين وهو يخوفه : أذكرك الله في نفسك ، فإني أشهد أني قاتلت  
لتقتلن .

فيهبج « الحسين » لما قال « الحر » ، ويالتفت إليه « غضبا وهو  
يقول له :

أبالموت تخوفني ؟ وهل يبدو بكم الخطب أن تقتلوني ،  
ما أدري ما أقول لك ، ولكنني أقول كما قال أخو الأوس لابن  
عمه ، وهو يريد نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم : إلى أين  
تذهب فإنك مقتول ؟ فيقول هذا الأوسى :

سأمضى وما بالموت عار على الفتي

إذا مانوى خيرا وجاهد مسلما

\*\*\*

وهكذا رأى « الحسين » فيما يُعرض عليه ذلّ الأبد فلم  
يرضه ، ورأى نفسه في محنة ، والمحن كما تضيق تنفرج ، يملأ اليأس  
قلب الضعفاء فيجبنون ويصغرون . وتتأبى على اليأس قلوب  
الأقوياء فلا يهنون .

ولقد كان «الحسين» من هؤلاء الأقوياء فلم يكن ، ومضى في  
سيره و«الحر» يسايره .

وفيه اهتم ماضون يخبطون في الأرض لا تعرف لهم وجهة ،  
ولكنهم على كل حال غير قاصدين قصد الكوفة ، ولا قاصدين  
قصد المدينة ، إذا هم بأربعة نفر قد أقبلوا من الكوفة على  
رواحلهم .

وكان «الحسين» على الرغم مما بدا له من أهل الكوفة لا يزال  
يربطه أمل بهم ، فلقد كان يؤمن في قرارة نفسه أنهم أنصاره ،  
ولكن غلبه «ابن زياد» عليهم ، وأهم بين يدي دنيا فيها كل  
ما يغري من مال وجاه ونشب ، وقد ملكه «ابن زياد» باسم «يزيد» ،  
وفيهما كل ما يغري بنصره على حقه ، طمعا في ثواب وطمعا في  
قربى من آل البيت ، وقد ملك هو أسبابها ، ولكنه لم يستطع أن  
يملا بها قلوبهم لينسوا ما أغراهم به «ابن زياد» .

وعلى نحو ما عرف «الحسين» أهل الكوفة عرفهم «الحر بن  
يزيد التيمي» من أجل هذا تطأح الحسين إلى هؤلاء نفر الأربعة  
الذين طالعوهم من الكوفة ، وهو يظن أن عندهم خبرا ينتفع به ، ومن

أجل هذا تطاع «الحر» إلى هؤلاء النفر ، وهو يظن أن عندهم شرًا  
يُفسد عليه أمره .

ومن أجل هذا أراد «الحسين» أن يلقاهم ليعرف ما عندهم  
ومن أجل هذا أراد «الحر» أن يمنعه عنهم ، ويقول «الحر» : إن  
هؤلاء النفر من أهل الكوفة وأنا حابسهم أو رادهم .  
ويقول الحسين : لا معة لهم ممّا أمتع منه نفسى ، إنما هؤلاء  
أصارى وإيهم بمنزلة من جاء معى ، فإن كففت عنهم  
وإلا نأجزتك .

ولقد كان «الحر بن يزيد» ينفى العاقبة لنفسه ما استطاع ، ولم  
ير فيما طلب «الحسين» كبير بأس ، وهل هم غير أربعة  
لا يغنون شيئاً ، ولقد ترك الكوفة لأن زياد ، وترك «ابن زياد»  
«الحسين» له ، فكف عنهم .

ويجاس إليهم «الحسين» يستخبرهم خبر الناس خلفهم ، وهو  
يطمع فى أن يسمع منهم غير ما بلغه عنهم ، فيوجه الأمور توجيهاً  
جديداً . فيخبرى للحسين أحدهم وهو يقول : أما أشراف الناس  
فقد أعظمت رشوتهم ، ومائت غرائرهم ، فهم إلب واحد عليك .

وأما سائر الناس بعدهم فإن قلوبهم تهوى إليك وسُيوفهم غداً مشهورة عليك .

ويلتفت إليه ثانیهم وهو يقول : « لقد رأيت قبل خروجي من الكوفة بيوم ظهر الكوفة وفيه من الناس ما لم ترَ عيناى جمعا في صعيد واحد أكثر منه قط ليسيروا . فأشددك الله إن قدّرت على ألاّ تقدم إليه شبراً فافعل . »

فأطرق « الحسين » وهو يقول :

إن بيتنا وبين هؤلاء القوم قولا اسنا نتقدّر معه على الانصراف ، ولا ندرى علام تتصرف بنا وبهم الأمور .

حيرة لا يقدر « الحسين » على أن يقضى فيها رأى ، لا يملك  
 أن يرجع عنهم كما لا يملك أن يرجع إليهم . ولكنه صاحب حق  
 يؤمن به ، وما يحب أن يهزم عليه ، وأن يكون الهازم له هؤلاء  
 النفر من الأمويين الذين يراهم متعصبين ثم هم غير عادلين ، وهؤلاء  
 النفر من أهل الكوفة الذين كانوا له فإذا هم عليه .  
 وإنها لمرة على النفس أن يهزمك خصمك بصديقتك ،  
 ويغلبك بأنصارك .

ويعن « الحسين » في إطراره فإذا رأسه يخنق خفقة ثم  
 يقبضه وهو يقول : « إنا لله وإنا إليه راجعون ، والحمد لله  
 رب العالمين » .

فيفزع لما نطق به الحسين ابنه « علي بن الحسين » ، ويُقبل  
 على أبيه آسيا وهو يسأله : « يا أبت ... جعلت فداك ، ممّ حدثت  
 واسترجعت ؟ ... »

فيجيبه أبوه آسيا كذلك : « يا بني ... إني خفقت برأسي خفقة



فَعَنَّ لِي فَارِسَ عَلَى فَرَسٍ فَقَالَ : « الْقَوْمُ يَسِيرُونَ ، وَالْمَايَا تَسِيرُ ؛  
فَعَلِمْتُ أَنَّ أَنْفُسَنَا تُعَيِّتُ إِلَيْنَا » .

فَيَقُولُ عَلَى : يَا أَبَتَ ، لَا أُرَاكَ اللَّهُ سَوَاءً ، أَلَسْنَا  
عَلَى الْحَقِّ .

فَيَقُولُ لَهُ الْحُسَيْنُ : بَلَى ، وَالَّذِي يَرْجِعُ إِلَيْهِ الْعِبَادُ .

فَيَقُولُ عَلَى : إِذْنٌ لَا تُبَالَى أَنْ نَمُوتَ مُحَقِّقِينَ .

فَيَقُولُ لَهُ الْحُسَيْنُ : جِزَاكَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ خَيْرًا ، مَا جِزَى  
وَالِدًا عَنْ وَلَدِهِ .



وَهَكَذَا قَرَّ فِي نَفْسِ « الْحُسَيْنِ » أَنْ يَسْتَدْبِرَ دُنْيَاهُ لِيَسْتَقْبَلَ  
أَخْرَاهُ ، وَهَكَذَا أَطْمَأَنَّ الْحُسَيْنُ حِينَ سَمِعَ مَا سَمِعَ مِنْ ابْنِهِ أَنَّ فِي لُثْرِهِ  
مَنْ سَيَحْمِلُ هَذَا الْحَقَّ عَنْهُ .

وَلَكِنَّهُ كَانَ عَلَى هَذَا مُشْفِقًا عَلَى أَصْحَابِهِ ، لَا تَرِيدُ أَنْ  
يَعْرِضَهُمْ لِلتَّلَافِ ، وَلَا أَنْ يَتْرَكَهُمْ فَرِيسَةً لِلْعَدُوِّ ، فَأَخَذَ يَمِيلُ  
بِهِمْ يَسْمُرَةً وَيَمْنَةً ، يَرِيدُ أَنْ يَفَرِّقَهُمْ ، وَيَرِيدُ أَنْ يَنْتَفِضُوا عَنْهُ  
و « الْحَرَرِ » ، يَا بَنِي عَلَيْهِمْ ذَلِكَ ، وَهُوَ يَرِيدُ أَنْ يَسُوقَهُمْ بِجَمْعِهِمْ

إلى الكوفة فيأبون عليه .

وفيا هم في ذلك إذا راكب من الكوفة قد أقبل  
عليهم فتلبّثوا ينظرون على أمل ، وإذا هو يسلم على  
« الحر » ولا يسلم على « الحسين » ، فتطالعوا ينظرون على  
غير أمل .

فلقد كان هذا الراكب رسول « ابن زياد » إلى « الحر »  
وإذا معه كتاب إليه وإذا فيه : أما بعد ؛ فجعّ جع بالحسين —  
أى ضيق عليه المكان — حين يبلغك كتابي ويسبق عليك  
رسولي ، فلا تنزله إلا بالعراء في غير حصن وعلى غير  
ماء ، وقد أمرت رسولي أن يلازمك فلا يفارقك حتى يأتيك  
بإفادك أمري ، والسلام .

\*\*\*

وكان « الحر » كما تعلم رجلا يحب العافية ، ولكنه كان إلى  
ذلك رجلا يخاف « ابن زياد » . وحب العافية في ملك الرجل  
ما لم يَنقُضْهُ عليه الخوف ، لا سيما إذا كان هذا الحب للعافية  
لونا من ألوان البقية التي كانت في قلب « الحر » .

لذلك سرعان ما استجاب « الحر » لأمر « ابن زياد » يتخذ  
من وجود هذا الرسول معه عينا عليه ، ما يُبرر به هذه الاستجابة  
لأمر « ابن زياد » .

فلقد ضيق « الحر » على « الحسين » ومن معه ما وسعه هذا  
التضييق ، وأخذهم بالنزول على غير ماء ولا في قرية .  
ويقول له الحسين ومن معه : دعنا نزل على ماء أو نحل  
غريزة .

فيقول لهم الحر : لا أستطيع ، إن هذا الرجل قد بُعث  
عينا على .

\* \* \*

عند هذا ينبرى أحد رجال « الحسين » للحسين يقول له :  
« إنه لا يكون والله بعد ما ترون إلا ما هو أشد منه يابن رسول الله ،  
وإن قتال هؤلاء الساعة أهون علينا من قتال من يأتينا من بعدهم ،  
فلعمرى أيا أتينا من بعدهم ما لا قبيل لنا به .

فيقول الحسين : ما كنت لأبدأهم بالقتال .  
وما إن يُظلمهم الغد حتى تُظلمهم شدة أخرى ،

لا تدع لهم مجالا في التفكير فيما أشار به هذا المشير بالقتال .  
فقد رأوا جيشا جديدا يُبطلهم من الكوفة ، وعليه « عُمَر  
ابن سعد بن أبي وقاص » ، ينضم إلى هذا الجيش الذي أحاط بهم  
وعليه « الحر بن يزيد » .

\* \* \*

ولقد كان لعمر بن سعد بن أبي وقاص، قَبْلَ أَنْ يَقْدَمَ بِحِيشَةٍ،  
 مع «ابن زياد» قصة، ولقد كان في هذه القصة ما يُسَلِّقُ ضَوْءًا  
 جديدًا على ما نحن فيه، وما يكشف لك شيئًا عن تحوُّل الناس عن  
 الأخذ من دنياهم بما يَنفَعُهُمْ لآخرتهم، إلى الأخذ من دنياهم بما  
 لا يَنفَعُهُمْ في آخرتهم، وما يدلُّك شيئًا على أن الناس انصرفوا عن  
 الغرض العام الذي يؤسِّس لدولة صالحة نفعها لهم جميعًا، إلى  
 النفع الخاص الذي يُمَهِّد لجاه فردي نفعه لأحد منهم.

فلقد كان «عبيد الله بن زياد» بعث «عمر بن سعد بن أبي  
 وقاص» على هذا الجيش إلى الدَّيْلَم؛ ليردهم إلى الطاعة بعد  
 ما خرجوا عليه. فلما تم له ما أراد، ولاء «ابن زياد» الرَّيَّ.

ثم كان ما كان من أمر «الحسين»، فكُتِبَ «ابن زياد» إلى  
 «عمر بن سعد» يأمره أن يسير إلى «الحسين»، ووعدته إذا هو  
 فرغ من أمر «الحسين» رده إلى عمله الذي كان سَمَّهَ إليه به.

ولقد استكبرها «عمر بن سعد» أولا — أعنى أن يتوجه بجيشه إلى «الحسين» — وأبأها على «ابن زياد» واستعفاها منها ثانيا .  
ولكن «ابن زياد» كان ما كرا يعلم من أين تؤكل الكتف .  
فها إن وصله رد «عمر بن سعد» حتى أرسل إليه يقول له : نعم ،  
على أن ترُدَّ عهدي ، وهو يعنى عزله عن الرى .  
وما تكاد الدنيا تذكر لعمر بن سعد ، أو أنه سيفقد نصيبه  
منها ، حتى يملع . ويرسل إلى «ابن زياد» يقول له : أمهلنى يوماً  
حتى أنظر .

ويجاس «عمر بن سعد» إلى أصحابه يسديشهم ، فكلهم يسير  
عليه ألا يفعل ، ويأنيه «حمزة بن المغيرة بن شعبة» : «— وكان ابن  
أخته — فيقول له : أنشدك الله ألا تسير إلى «الحسين» فتأثم  
وتقطع رحمك ، فوالله لأن تخرج من دُنياك ومالك وسلطان  
الأرض ، لو كان لك خير ، من أن تلقى الله بدم «الحسين» .  
فتبلغ كلمات ابن أخته من قلبه ، وينصرف عنه وهو فى ظاهر  
أمره مُسجِب ، ولكنه كان فى باطن أمره رافضاً ، ويدب ليلته  
ولسانه يردد :

أتركُ مُلكَ الرِّئىِّ والرِّئىُّ رَغْبَتِي

أَمْ أَرْجِعُ مَذْمُومًا بِقَتْلِ حُسَيْنٍ

وَفِي قَتْلِهِ النَّارُ الَّتِي لَيْسَ دُونُهَا

حِجَابٌ وَمُلْكُ الرِّئىِّ قُرَّةُ عَيْنٍ

وَهُوَ عَلَى ذَلِكَ يَصْبِحُ مَتَرَدِّدًا ، فَيَأْتِي دَابْنَ زِيَادٍ ، فَيَقُولُ لَهُ :

إِنَّكَ قَدْ وَلَّيْتَنِي هَذَا الْعَمَلَ وَسَمِعَ النَّاسُ بِهِ ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَنْفِذَ

لِي ذَلِكَ فَافْعَلْ ، وَابْعَثْ إِلَى الْحُسَيْنِ مِنْ أَشْرَافِ السَّكُوفَةِ مَنْ لَسْتُ

أَعْنَى فِي الْحَرْبِ مَعَهُ - وَيُسَمَّى لَهُ أَنَاسًا .

فَيَقُولُ لَهُ « ابْنُ زِيَادٍ » : لَسْتُ أَسْتَأْمُرُكَ فِيمَنْ أُرِيدُ أَنْ أَبْعَثَ ،

فَإِنْ سَرْتُ بِجَنْدِنَا ، وَإِلَّا فَاْبْعَثْ إِلَيْنَا بِجَنْدِنَا .

عِنْدَهَا تَغْلِبُ الدُّنْيَا بِمَتَاعِهَا «عمر بن سعد» عَلَى أَمْرِهِ ، وَإِذَا هُوَ

يَقُولُ : فَإِنِّي سَائِرٌ .

وَعَلَى هَذِهِ قَدِمَ «عمر بن سعد بن أبي وقاص» عَلَى جَيْشِهِ هَذَا :

الَّذِي كَانَ يَتَّخِذُ أَرْبَعَةَ آلَافٍ مُقَاتِلٍ ، وَعَلَى هَذِهِ أَصْبَحَ «الحسين»

يُقَاتِلُ هَذَيْنِ الْجَيْشَيْنِ الَّذِينَ لَا قِبَلَ لَهُ بِهِمَا .

ولقد أرسل «عمر بن سعد» إلى «الحسين» حين قدم عليه  
بجيشه يسأله ما الذى جاء به .

وكان «عمر بن سعد» لم يكن يعرف فيم خرج «الحسين» ،  
وإلى أى شىء ، ولكنها لغة القواد يحبون أن يندروا قبل أن  
يندروا .

أو لعل «عمر بن سعد» أراد هو الآخر أن يضمن العافية ، كما  
أراد أن يضمنها «الحر بن يزيد» ؛ من أجل ذلك بعث إلى «الحسين»  
يسأله ، وقد يجيب «الحسين» بما يجد هو فيه مخرجا من ذلك  
الضيق .

وكان «الحسين» صريحا فيما أجاب به «عمر بن سعد» ، لا يلتفت  
إلى حقه ، ولكنه يلتفت إلى شىء أقل من ذلك ، فيقول له :  
«كتب إلى أهل مصركم هذا أن أقدم عليهم ، فأما إذ ذكرهونى فإنى  
أنصرف عنهم .»

وهكذا أعطى «الحسين» «عمر بن سعد» سببا يستطيع هو أن  
يتعلق به ، إن صح منه العزم على أن يمد إلى «الحسين» يدا .  
ولكن «عمر بن سعد» لم يكن يملك الأمر كله فيقضى



في أمر « الحسين » بما يرى ولكنه كان يملك أن يميل « الحسين »  
حتى يكتب إلى « ابن زياد » .  
وهكذا كتب « عمر بن سعد » إلى « ابن زياد » يخبره بما كان  
من « الحسين » .

. . .

ولئن كان « الحر بن يزيد » ممن يرجون العافية ويَطمعون  
فيها ، ولئن كان « عمر بن سعد » ممن أرادوا العافية وطمعوا  
فيها ؛ فلم يكن « ابن زياد » ممن لا يميل إلى العافية ولا يطمع فيها ،  
ولكنه كان أشبه شيء بالذئب المفترس الجائع لا يثنيه  
استسلام الفريسة بين يديه عن أن يُنشب فيها أظافره ، فما  
كاد « ابن زياد » يقرأ ما كتب إليه « عمر بن سعد » حتى تمثل  
بقول القائل :

الآن إذ علقت مخالبنا به يرجو النجاة ولات حين مناص  
ثم كتب إلى « عمر بن سعد » يأمره أن يعرض على الحسين  
بيعة « يزيد » .

وما وقف « ابن زياد » عند هذه يجتزئ بها من « الحسين » ،

ولكنه جعل أمر « الحسين » بعدها — إن فعل — إليه يأمر فيه بأمره .

ثم خاف « ابن زياد » أن يفتقر « عمر بن سعد » عن حصار « الحسين » وهو يُسْفاوْضُه ، فأمره أن يَبْقَى على حصاره ، وأن يَبْقَى على مَنَعِه الماء ، لا يجعله يدنو منه ، ولا يدنو منه أحد من أصحابه .

ولئن كان « عمر بن سعد » قد استقبل أمره مع « الحسين » وهو يريد العافية ، قلقد أُستدبره وقد أنسى تلك العافية .

فما إن وصل كتاب « ابن زياد » ، إليه حتى أرسل خمسمائة فارس يحيطون بالماء ، إمعاناً منه في الحيلة ، وإسرافاً منه في الإيذاء . وإذا هذا الإمعان وذلك الإسراف من « عمر » ، ينتقلان إلى رجال « عمر » ، وإذا واحد منهم يتطالع إلى « الحسين » وهو يقول : يا « حسين » أما تنظر إلى الماء كأنه كبِد السماء ، والله لا تذوق منه قطرة حتى تموت عطشا .

وهكذا أنسى الحسين الأمر الذى خرج له ، وعاد يذكر هذا الأمر الذى بين يديه ، لقد خرج ينازع على ملك ، وأصبح اليوم ينازع على حياة ، ولقد جهد به أصدقاؤه أن يبقى فى المدينة لا يغادرها فلم يجبههم ، فإذا هو يجهد بأعداءه أن يرتد إلى المدينة فلم يجيبوه ، ولقد كان له من قبل — غير أهله — أنصار. منهم المخلص لدعوته الإخلاص كله — وكانوا قلة — ومنهم المخلص لها شيئا من الإخلاص — وكانوا كثرة — ومنهم المسوق لغنم أو نفع — وكانوا بين هؤلاء وهؤلاء . — فإذا هو قد فقد هؤلاء جميعا وكاد يفقد معهم بعض أهله .

\*\*\*

وما انتهى حديث « عمر بن سعد بن أبى وقاص ، مع الحسين ؛ وإن كان قد انتهى بينه وبين نفسه ، فلقـد نظر عمر بن سعد إلى دنياء مغرية فآثرها على أخراه . — كما مـربك . — وانتهى على أن يخرج إلى الحسين على رأس جيشه ، فأنهى بهذا الرأى الذى رآه

ما بينه وبين نفسه من أخذ ورد . ومضى يقضى في أمره مع الحسين في ضوء ما قضى مع نفسه .

فلقد بعث الحسين إلى « عمر بن سعد » ذات ليلة يطلب منه أن يلقاه بين العسكر لا في هذا العسكر ولا في ذاك ، ولقد خرج إليه « عمر » فالتقيا وتحادثا طويلا ، ثم عاد « الحسين » إلى عسكره كما عاد عمر إلى عسكره ، فأفضى الحسين إلى من حوله ا كان ، وأفضى « عمر » إلى من حوله بما كان ، فإذا المتحدثون من هنا ومن هناك يلتقون على خبر واحد في معناه ، وإن اختلف شيئا في مبناه .

وإذا هذا الخبر الواحد يرويه الرواة فيقولون : إن الحسين قال لـ « عمر بن سعد » : اخرج معي إلى يزيد بن معاوية وندع العسكرين .

فيقول له عمر بن سعد : أخشى أن تهدم دارى .

فيقول له الحسين : أبني لك خيرا منها .

فيقول عمر بن سعد : تؤخذ ضياعى .

فيقول الحسين : أعطيك خيرا منها من مالى بالحجاز .

وكان وراء ذلك -- غير الدار والضياع -- عز الولاية وجاه  
الإمرة ، يطمع فيها «عمر بن سعد» ويبيعها لنفسه ، لم يذكرهما  
للحسين ، لأن الحسين كان على حاله تلك أعجز من أن يعد بمثلهما ،  
وهو إن ملك أن يعوض «عمر بن سعد» عن داره وضياعه ، فما  
بملكه أن يعوضه ولاية وإمرة .

لهذا سكوت عمر فلم يقل للحسين شيئا ، ولهذا انصرف  
«عمر بن سعد» عن «الحسين» ولم يجبه إلى ما طلب .

\*\*\*

والرواة الذين قالوا هذه قالوا أخرى ، فلقد قالوا : إن الحسين  
قال لعمر : اختاروا مني واحدة من ثلاث : إما أن أرجع إلى  
المكان الذي أقبلت منه ، وإما أن أضع يدي في يد يزيد بن معاوية  
فأبصر فيماني وبينه رأيه ، وإما أن تسيروا بي إلى أي ثغر  
من ثغور المسلمين شئت ، فأكون رجلا من أهله لي ما لهم وعلى  
ما عليهم .

\*\*\*

ولكن الرواة الذين رويوا هذا وذاك يقولون : إن الحسين

لم يطلب أن يضع يده في يد يزيد ، ولا أن يسيرُوه إلى ثغر من ثغور المسلمين ، ولكنه قال : دعوني أرجع إلى المكان الذي أقبلت منه ، أو دعوني أذهب في هذه الأرض العريضة حتى تنظروا إلى ما يصير إليه أمر الناس .

\*\*\*

ولكنني أرى أن هذه الروايات كلها تلتقي على معنى واحد ، وإن أراد المشفقون على «الحسين» ألا يصدر عنه ما يلزمه في كبريائه .

وكأنني بهؤلاء المشفقين أرادوا أن يخلص لهم كلام «الحسين» على الوجه الذي صوروه ليمضوا بعده في دعوتهم يكسبون من إجابته البيعة على «يزيد» ، وأنه مضى — رحمة الله عليه — وهو لها رافض ؛ — ما يعطيهم الحق بعده في أن يمضوا هم على الدعوة ويهيئوا لها ، وفرق بين أن يستقبل الدعاة الناس وفي أيديهم هذه الحججة ، وبين أن يستقبلوهم وهم لا يملكون هذه الحججة .

وما أريد أن أقول إن الحسين قال هذا ولم يقل ذلك ، ولكنني أكاد أفهم أن «الحسين» حين طلب إلى «عمر» أن ينزها معامل يزيد،

لم يطلب ذاك إلا وهو يريد أن يبايع ، ولقد أراد أن يعطى هذه البيعة ليزيد ، ولم يرد أن يعطيها على يدى « عبيد الله بن زياد » وهو مقهور ، ولقد رأى إن هو لقي « يزيد » فقد لقي ندا وملكاً ، وإن هو لقي « ابن زياد » فقد لقي عدواً مسفهاً فى عداوته يريد أن يذله .

وأكد أفهم أن « الحسين » حين طلب إلى عمر ، أن يحل بلداً من بلاد الله لم يكن يغيب عليه أنه لن يكون له الخيار فى النزول بأى بلد يشاء له فيها أنصار يعود بهم بعد قليل لحرب يزيد ، ولكنه كان يدرك أن اختيار هذا البلد لهم لا له .

وأكد أفهم أن « الحسين » حين طلب إلى عمر بن سعد أنه سيكون رجلاً من الناس ، له ما لهم وعليه ما عليهم ، كان يملئ عن روية بعد ما فاتته أمر الناس وبعد أن بلاهم فلم يجد عندهم خيراً ، وكان يملئ عن رغبة خالصة فى السلم لا يريد أن يجعل لعدوه عليه حقاً .

ولو أنه جعل بقاءه فى هذا البلد الذى سيحله هذا الذى روه عنه ، من أنه سيبقى فيه حتى ينظر ما يصير إليه أمر الناس ، لكان

شيئاً ينقض عليه رغبته في السلم ، ويعطى لعدوه عليه حقا في ألا يعطى .

ولكنه - كما قلت - لم يعد هذا الذى أرادته الشيعة والأنصار ليضوا في دعوتهم معتمدين على أن « الحسين » مضى ولم ينزل عن شيء ، وأنه قد ترك لهم الأمانة ليحملوها عنه ، بعد أن لم تسعفه الأحوال على تحقيقها .

❖ ❖ ❖

غير أن الرواة يلتقون مرة ثانية على هذا الخبر الذى خرج عليه بعضهم ، ويقولون : إن « عمر بن سعد » حين لم يجب « الحسين » إلى ما طلب حرصا على دينه كتب إلى ابن زياد يقول : « أما بعد . فإن الله أطفأ النائرة وجمع الكلمة . وقد أعطاني الحسين أن يرجع إلى المكان الذى أقبل منه ، أو أن يسيره إلى أى ثغر ، أو أن يأتي يزيد أمير المؤمنين فيضع يده في يده ، وفي هذا لكم رضى والأمة صلاح .

فلقد ذكر « عمر » أن الذى ولّاه « ابن زياد » ، ولقد ذكر « عمر » أن « ابن زياد » أقرب منه إلى « يزيد » ، ولقد ذكر « عمر » أنه إن عدا



«ابن زياد» إلى «يزيد»، ولم يرجع إليه ، فليس آمنا أنه سوف يغضب  
«ابن زياد» ولا يرضى يزيد على حين أنه إن وصل حبله به «ابن زياد»  
فهو ضامن رضى «ابن زياد» و«يزيد» ، ثم هو ضامن بعدها  
تلك الولاية التي لوح له بها ابن زياد .

لهذا كتب عمر إلى ابن زياد ، ولم يستجب للحسين فيصحبه  
إلى يزيد .

ولقد كاد «ابن زياد» يجيب «عمر بن سعد» إلى ماعرض : ولقد  
رآه ابن زياد نصرا حاسما له أولا وليزيد ثانيا .  
ولكنه قد فاته أنه إن هو أجاب فقد أعطى الحسين شيئا أراد ،  
فيه امتحان له وفيه إنصاف للحسين .

ولقد كان ابن زياد لطفا للنصر ، فلم ينظر للأمر بعقله كله ،  
وكان إلى جنبه رجل هو -- شمر بن ذى الجوشن -- لم تغمره  
نشوة الفرح كما غمرت ابن زياد ، فينسى بها عقله وتديره فالتفت  
إلى ابن زياد وهو يقول له : أتقبل هذا منه وقد نزل بأرضك  
وإلى جنبك ، فلا تعطه هذه المنزلة فإنها من الوهن . ولكن لينزل  
على حكمك هو وأصحابه فإن عاقبت كنت ولى العقوبة ، وإن

عفوت كان ذلك لك .

وهكذا ردّ « ابن ذى الجوشن » ابن زياد إلى كل عقله .  
وتمام تدبيره ، فلقد أراد الحسين — كما مر بك — أن  
يفوت على ابن زياد تشفيه فيه ، وأن يفوت عليه أن يكون  
حسم النزاع على يديه ، فيخرج من الأمر بنصف نفرة ، أو دون  
هذا بكثير . وما يكاد ابن زياد يسمع من ابن ذى الجوشن قوله حتى  
يقول له : نَعَمْ ما رأيت . اخرج بهذا الكتاب إلى عمر بن سعد  
فليعرض على الحسين وأصحابه النزول على حكمي ، فإن فعلوا فليبعث  
بهم إلى سلما ، وإن أبوا فليقتلهم .

ثم يحاط به ابن زياد ، لأمره ؛ فلقد داخله من عمر بن سعد  
شيء ، فيقول لابن ذى الجوشن ، وإن فعل « عمر » فاسمع له وأطع ،  
وإن أبى فأنت الأمير عليه وعلى الناس واضرب عنقه وابعث إلى  
رأسه .

لقد كاد ابن زياد أن ينسى قسوته الفطرية بهذا الظفر  
الذى لاح له في الأفق فبدأ يلين شيئا ، ولقد عاد ابن زياد إلى  
قسوته كلها لم ينس منها شيئا حين قرت في أذنه كلمة ابن ذى

الجوشن ، وهى لا تعنى المؤمنين الذين يعملون لأخراهم شيئا ،  
ولكن تعنى فى قلوب القساة الذين يعملون لديناهم كل شئ .

من أجل ذلك ركب ابن زياد الطريق إلى دنياه ولم يركب  
الطريق إلى أخراه ، ومن أجل ذلك تنكر ابن زياد لمن يشيرون  
عليه فى أخراه واستمع إلى من يشيرون عليه فى دنياه ، ومن أجل  
ذلك نسى « ابن زياد » « عمر بن سعد » وما بلغه من حسم للنزاع ،  
وذكر « ابن ذى الجوشن وهو يدفعه إلى مالا تحمد عقباه ،  
ومن أجل ذلك أصبح « عمر بن سعد » لدى « ابن زياد » متبها ،  
وأصبح « ابن ذى الجوشن » ناصحا ، ومن أجل ذلك كان جزاء  
« عمر بن سعد » أن يقطع رأسه ، وكان جزاء « ابن ذى الجوشن »  
أن يكون له الأمر .



ولقد كان كتاب « ابن زياد » الذى حملة « ابن ذى الجوشن »  
إلى « عمر بن سعد » ينبئك بهذا كله ، فاقرأه معى لتعلم مبلغ الحقد  
من نفس « ابن زياد » فلقد كتب إليه يقول : « إني لم أبعثك إلى الحسين  
لتكف عنه ، ولا لتنيه ، ولا لتطاوله ، ولا لتقعد له عندى شافعا .

انظر فإن نزل « الحسين » وأصحابه على الحكم واستسلموا فأبعث بهم إلى سلا ، وإن أبوا فازحف إليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم فإنهم لذلك مستحقون . فإن قتل « الحسين » فأوطىء الخيل صدره وظهره فإنه عاق شاق ، قاطع ظلام ، فإن أنت هضيت لأمرنا جزيناك جزاء السامع المطيع ، وإن أنت أبيت فاعتزل جندنا واخل بين « شمر » وبين العسكر .



واقعد كان « ابن زياد » في كتابه هذا غنيفاً بـ « عمر بن سعد » رابه ، فلقد جمع في كتابه هذا إلى عنفه به مكره له ، فهو يعلم حُب « عمر » لدنياه ، فشفع عنفه بمكره ، وهو يؤمن أن « عمر » مغلوب على أمره بحبه لدنياه وأنه لا شك أخذ بما يريد منه ، ناس ما يريد هو ، ليضمن ما عند « ابن زياد » وما يعنيه أن يخسر ما عند الله .

ولكن « عمر بن سعد » كان موصولاً يحب العافية بسبب ، وكان موصولاً يحب الدنيا بأسباب ، ومضى حبه للدنيا يرخى يديه على هذا السبب ويشد يديه على تلك الأسباب .

لهذا التفت إلى « ابن ذى الجوشن » شبه « غضب يقول له :  
أفسدت علينا أمراكنا رجونا أن يصلح والله ، فلن يستسلم  
« الحسين » أبدا ، والله إن نفس أبيه لبين جنبيه .

ولكنه - بين يلتفت إليه « ابن ذى الجوشن » يقول له :  
وما أنت صانع .

فيحس « عمر » أن « ابن ذى الجوشن » يهدده بالذى يقول .  
هنا يذكر دنياه .

فيقول له : سأتولى ذلك .

وهو يعنى أنه ماض كما قال « ابن زياد » .

ويركب «عمر بن سعد» والناس معه فيشرفون على «الحسين»  
وهو جالس أمام خيمته وقد احتجب بسيفه و غلبه الناس فأطرق  
برأسه .

وتسمع أخته زينب عجيح الجنود وصهيل الخيل وهي مقبلة  
فتسرع إلى أخيها «الحسين» فتوقظه وترفع رأسه .

وما تكاد عيناه تقعان عليها بعد أن أفاق - لا تغنيه هذه الخيل  
ومن عليها، ولكن يعنيه أن يقول لها - : إني رأيت رسول الله  
صلى الله عليه وسلم في المنام يقول لي : إنك تروح إلينا .

وتبكي أخته زينب وتكاد تخرج عن اطمئنانها وهي تقول :  
يا ويلتاه .

فيلتفت إليها «الحسين» واجما، ولكنه غير هيَّاب ولا وجل  
فيقول لها : ليس لك الويل يا أختي ، اسكتي رحمك الله .

ويلتفت إليه أخوه «العباس» ينهضه وهو يقول له : أناك القوم  
يا أختي .

وينهض «الحسين» لاليشيرها حربا؛ فلقد علم «الحسين» أنه لا قبل له بالقوم، ولا ليلالي حربا فيما نطن ، فلقد أعطى ما يدفع الحرب عن الناس ويرد الأمر أمنا بينهم .

لهذا هم «الحسين» أن يخلص إلى القوم يسألهم عن أمرهم فلم يكن يخشاهم بعد الذي أعطاهم .

ولكن أخاه «العباس» لا يدعه يخرج إليهم إذ هي فتنة والفساد من صفاتها . فركب هو إلى القوم ليعرف ما عندهم ، - يجعل حياته بين حياة أخيه . -

ويلقي «العباس» القوم فيقول لهم : ما لكم ؟ وما بدا لكم ؟

\*\*\*

ويرتد «العباس» لينتخب أخاه «الحسين» بما جد وبما يطلب «بن زياد» وبما أرمل به رسوله «ابن ذى الجوشن» إلى «عمر بن سعد» وبما كان من «عمر بن سعد» .

ويعود «العباس» إلى القوم ثانية يحمل إليهم جواب أخيه «الحسين» يستمعها لهم إلى غد ليقضى فيما طلبوه منه برأى، إما أن يرضاه وإما أن يرده .

ولقد كاد «عمر بن سعد» أن يجيب «العباس» إلى ما طلب: ولكنه كان يعلم أن إلى جنبه «ابن ذى الجوشن» وكان يعلم أن رأى رأى «ابن ذى الجوشن» لا رايه، وكان يعلم أنه إن قضى بما يرى لا بما يراه «ابن ذى الجوشن»، فقد ولت عنه دنياه العريضة التي طمع فيها. وربما ولت قبلها حياته العزيزة التي يحرص عليها.

لهذا التفت «عمر بن سعد» إلى «شمر بن ذى الجوشن» وهو يقول له: ماترى يا شمر.

و«شمر» ماكر هو الآخر، يريد أن يرخى له «عمر» حتى يتورط ورطة لا يقيله هو بعدها، ويكون له العذر عليه. فقال له: أنت الأمير فأقبل على الناس.

ويقبل عمر على الناس وفيهم من يرحم للضعيف ضعفه، وفيهم من يزيده ضعف الضعيف قسوة به.

فاستمع «عمر بن سعد» له «عمر بن الحجاج الزبيدي» وهو يشير ويقول:

«سبحان الله، والله لو كان «الحسين» من الديلم ثم سألكم هذه المسألة لكان ينبغي أن تجيبوه».



واستمع «عمر بن سعد» «لقيس بن الأشعث» وهو يشير  
ويقول متكئا: أجبهم، لعمرى ليصحبك بالقتال غدوة .

\* \* \*

لكن «عمر بن سعد» قد وجد في القوم من يعينه على نفسه  
الطامعة ، كما وجد فيهم من يعين نفسه الطامعة عليه، ولم يجد الناس في  
جانب واحد ولكنه وجدهم على رأيين ، ولقد رأى نفسه وليس  
لابن ذى الجوشن عليه حجة إن هو أخذ بالرأى الذى يعين على  
نفسه الطامعة، فالتفت الى «قيس بن الأشعث» يقول له: لو أعلم  
أنهم يفعلون ما آخرتهم العشية .

ثم رجع عن «الحسين» ليلقاه الغداة اللقاء الأخير، إما على  
الاستجابة فسلم مهيئ، وإما على الرفض فحرب لا تعرف اللين، كما  
أشار «ابن زياد»، وكما سيشهد تفاصيلها «ابن ذى الجوشن» .

نظر الحسين في أمره كله فتدبره فإذا هو ضعيف لا حول له، وإذا هو رحيم بمن معه لا يريد أن يحملهم على الشطط، وإذا هو ينظر لخلاصهم قبل أن ينظر لخلاص نفسه .

لهذا جمع « الحسين » إليه أصحابه بعد أن رجع عنه « عمر بن سعد » يقول لهم : أثنى على الله أحسن الثناء وأحمدته على السراء والضراء، اللهم إني أحمدك على أن أكرمنا بالنبوة وجعلت لنا أسماعا وأبصارا وأفئدة . وعلمتنا القرآن، وقممتنا في الدين، فاجعلنا لك من الشاكرين .

أما بعد فإني لا أعلم أصحابا أوفى ولا أخير من أصحابي، ولا أهل بيت أبر ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله جميعا عنى خيرا .

ألا وإني لأنظر إلى يومنا من هؤلاء الأعداء غدا، وإني قد أذنت لكم جميعا فانطلقوا في حل ليس عليكم منى ذمام . هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملا . وليأخذ كل رجل منكم

بيد رجل من أهل بيتي فجزاكم الله جميعا خيرا ، ثم تفرقوا  
في البلاد؛ في سوادكم ومدائنكم حتى يأتي فرج الله، فإن القوم يطلبونني  
وإن أصابوني شغلوا عن طلب غيري .

فيلتفت إخوته وأبناءؤه وأبناء إخوته إليه يقولون : ولم نفعل  
هذا ؟ ألتبى بعدك ؟ لا أرانا الله ذلك أبدا .

ويلتفت إليهم « الحسين » يقول لهم : حسبكم من القتل  
« مسلم بن عقيل » ، ذهبوا فقد أذنت لكم .

فيقولون له : وما نقول للناس ، نقول تركنا شيخنا وسيدنا  
ولم نرم معه يسهم ، ولم نطعن معه برمح ، ولم نضرب بسيف ،  
ولا ندرى ما صنع ، لا والله لا نفعل ولا كنا نفديك بأنفسنا ونقاتل  
معك حتى نرد مورديك ، فقمبح الله العيش بعدك .

ويقوم إليه « مسلم بن عوسجة الأسدي » فيقول له : نحن  
نتخلى عنك ولم نعذر إلى الله في أداء حقتك ، أما والله لا أفارقك  
حتى أكسر في صدورهم رمحي وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه بيدي .  
والله لو لم يكن معي سلاحي لقد قتهم بالحجارة دونك حتى  
أموت معك .

وكما تكلم أهل «الحسين» وتكلم «مسلم بن عجو سجة» تكلم غيرهم  
فقالوا فمثل كلامهم .

\* \* \*

وهكذا أراد «الحسين» أن يخرج منها آخر الأمر لا عليه  
ولا له ، فأبأها عليه «ابن زياد» بخطته تلك التي اختطها إمعانا  
في إذلاله ، وأبأها عليه قومه بهذا الذي قالوه له لم يرضوا أن  
تستذلهم الحياة ، ولا أن يستذلهم الناس ، ولا أن يستذلهم الخلق  
الوضيع ، وهم سادة الدنيا وسادة الناس وسادة الخلق .

وهكذا لم يجد «الحسين» بدا من أن يخوض بهم الحرب ،  
التي كرهها أخيرا له ولهم ، بعد أن كان يحبها له ولهم .  
ولقد كان «الحسين» حين أحب الحرب يملك عنده الأغر  
البين ، كما كان حين كرهها يملك عنده الأغر البين .

\* \* \*

وما درى «ابن زياد» أنه لو أجاب «الحسين» إلى ما طلب لأعفى  
نفسه من إثم وأعفى الأمويين من شر . وأكاد أميل إلى أنه لو فعل  
كان مسلماً دعوة «الحسين» إلى هداة وفتور وممكنا للأمويين

بينهم واغرائهم أن يزيدوا في تلك الهداة وذلك الفتور .  
ولكن « ابن زياد ، أبى إلا أن يمضى آثما ، وأبى إلا أن يعنى  
الأمويين بما أثم هو فيه ، وأبى إلا أن يشير بإثمه النفوس ، وأبى إلا  
أن يوقظ الشيعة على أعنف مما استيقظوا له أولا ، وأبى إلا أن  
يجمع بإثمه إلى الشيعة غيرهم ممن عز عليهم أن يمضى « الحسين ،  
مقتولا مثله .

وما أن أصبح « الحسين » حتى عبا أصحابه . ولئن سألتني كم كانوا ؟ لأجبتك أنهم لم يكونوا غير اثنين وثلاثين فارسا وغير أربعين راجلا .

هكذا كان رجال « الحسين » ، أمام ألف سبق بهم « الحارث بن يزيد » وأمام أربعة آلاف انضموا إليهم وعليهم « عمر بن سعد » .  
 ولقد أخذ « الحسين » ينظم من جيشه هذا الصغير بعدده ؛ —  
 الكثير بقلوبه ، فجعل منه ميمنة وميسرة ، وجعل على ميمنته رجلا ، وجعل على ميسرته رجلا ، وأعطى أخاه « العباس » رايته ، وجعل البيوت من وراء ظهره ، وأمر بحطب وقصب فألقى في مكان منخفض من ورائه وأضرم فيه نارا اثلا يؤتوا من ظهورهم .

\*\*\*

ولكن « الحسين » على ذلك كان مؤمنا بحتفه ، وكان أصحابه على ذلك مؤمنين بحتفهم ؛ ولكنه استشهد في سبيل الحق فلم يخشوه ،

واستشهاد في سبيل العزة فلم ينكروا عنه ، واستشهاد في سبيل الخلق فمشوا له ولم يعبسوا .

فقد رروا أن « الحسين » وهو يطالع القوم دعا بطيب فتطيب ، ففعل من يستعد للموت ، لا من يستعد للحرب ، فإذا أصحابه بين يديه يتسابقون إلى ما تطيب به أيماهم منه شيء ، وإذا لسان حالهم يقول : والله ما بيننا وبين الحور العين إلا أن يمسح هؤلاء علينا بأسيا فهم .

\* \* \*

غير أن « الحسين » — على هذا كله — كان يجب أن يعذر إلى عدوه ، فوقف إليهم يقول :

« أيها الناس اسمعوا قولي ولا تعجلوني حتى أعظكم بما يجب لكم على ، وحتى أعتذر لكم من مقدمي عليكم ، فإن قبلتم عذري وصدقتم قولي وأنصفتُموني ؛ كنتم بذلك أسعد ، ولم يكن لكم على سبيل .

ثم دنا منهم يقول :

أما بعد : فانسبوني فانظروا من أنا ثم راجعوا أنفسكم فعاتبوا ،

وانظروا هل يحل لكم قتلى وانتهاك حرمتي ؟ ... ألسنت ابن بنت نبيكم ، وابن وصيه ، وابن عمه ، وأول المؤمنين بالله والمصدق الرسول الله ؟ ؟ ...

أوليس حمزة سيد الشهداء عم أبي ؟ ... أوليس جعفر الشهيد الطيار في الجنة عمي .

أما في هذا عاجز يحجزكم عن سفك دمي ؟ ؟ .

وأحس « الحسين » من القوم ما يطعمه فيهم شيئا فازداد منهم غربا وهو يقول : فإن كنتم في شك مما أقول أو تشكون في أبي ابن بنت نبيكم ؛ فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري منكم ولا من غيركم .

اخبروني أطلبوني بقتيل منكم قتلته ، أو بمال لكم استهلكته ، أو قصاص من جراحة ؟ ؟ ...

فسكت القوم لا يجيبون فدنا منهم شيئا وهو ينادى : يا « شبيب ابن ربيع » و « يا حجار بن أبجر » و « يا قيس بن الأشعث » و « يا « زيد بن الحارث » ألم تكتبوا إلي في القدوم عليكم . فيقولون كلهم معا : لم نفعل .



هنا يرتد « الحسين » جزعاً وهو يقول : « بلى والله لقد فعلتم » .  
وما كذب « الحسين » ، ولكن كذب هؤلاء ، فلقد قالوها له  
والدنيا في ظنهم مواتية له « الحسين » وهم كاسبون . ولقد كذبوه فيها  
والدنيا منصرفة عنه إلى « ابن زياد » ، وهم لعقابه كارهون وفي  
معتنمه طامعون .

\* \* \*

ويلتفت إليهم « الحسين » حزيناً آسياً وهو يقول :  
أيها الناس ، إذ كرهتموني فدعوني أنصرف إلى مأمني  
من الأرض .

## ٢٨

وأذا أحد هؤلاء الذين ناداهم «الحسين» بأسمائهم يشهدهم على أنفسهم، ويشهدهم على ما قالوا، يقول للحسين :  
 أولا تنزل على حكم ابن عمك - وهو يعني «عبيد الله بن زياد» -  
 فإنك لن ترى ألا ماتحب ؟

وما أسي «الحسين» لهذه كما أسي لإنكارهم ، فهم حين أنكروا أنهم كتبوا إليه . قد أنكروا عليه ما يطلب من حق ، لهذا لم يلتفت «الحسين» إلى «قيس» التفاتة الداعى لنصير من أنصاره ، كما كان من قبل ، وإنما أجابه بما يجيب العدو عدوه ، ينذره المغيبة ، ويهدده بسوء العاقبة ، فقال له :

«أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم «مسلم بن عقيل» لا والله لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل ، ولا أقر إقرار العبد . ثم أناخ راحلته ونزل عنها وهو يقول : إني عذت بربى وربكم أن ترجمون ، أعوذ بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب .

وهكذا انتهى ما بين « الحسين » وبين القوم من كلام ، ولم يعد بينه وبينهم إلا شيء آخر ، استعد له « الحسين » فنزل عن راحلته ، واستعد له هؤلاء النفر من حوله فتجمعوا حوله في صلاحهم .

ولقد كانوا قلة لا يغنون عن أنفسهم ولا عن « الحسين » شيئاً ، ولكنهم كانوا أباة إن تمنعهم قتلهم أن يكونوا شيئاً ، وكانوا مع إبانهم ذوى فطن تقدر الأمور ، وذوى ألباب لا تحب أن تخالف عن أمر الله : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » .

برز من رجال « الحسين » « زهير بن القين » على فرسه وفي سلاحه ، لم يشأ أن يضعه عنه فيظن به وبأصحابه الخور ، ولم يشأ أن يدعو إلى قتال فيظن به الثور ، ولكنه وقف من أمامه من أهل الكوفة لينذرهم عذاب الله على ما اختانوا ، ويخوفهم غدر ابن زياد ، بعد حين ، ويضرب لهم الأمثال بمن قتل منهم .

ولكنه ما كاد يفرغ حتى صاحوا به يذكرونه بالسوء ويذكرون ابن زياد ، بالخير .

\*\*\*

ولقد كان « الحسين » حين خطب القوم يبغى أن يردهم إلى

عقل ليسمعوا له ، وإلى روية ليمالك مقادهم ، وإلى حجة ليضمهمهم على  
الرأى ولا يتركونه إلى غيره .

ولكن « زهير بن القين » خطب القوم فردّهم إلى طليش لم يملكوا  
معه العقل ، وإلى نزق نسوا به الحلم ، وإلى هيج خرجوا به عن الرأى  
إلى غيره ، وإلى ما أبعد من هذا كله ثورة ، فإذا هم يقولون له :  
والله لا نبرح حتى نقتل صاحبك ومن معه ، أو تبعث به وبأصحابه  
إلى الأمير « عبيد الله بن زياد » سلما .

وحين يلين « زهير بن القين » فى قوله لهم : يا عباد الله ، إن  
ولد فاطمة أحق بالود والنصر من « ابن سمية » - يعنى ابن زياد - فإن  
كنتم لم تنصروهم فأعينكم بالله أن تقتلوهم . خلوا بين الرجل وبين  
ابن عمه « يزيد بن معاوية » فلعمرى إن « يزيد » ليرضى من طاعتكم  
بدون قتل « الحسين » .

حين يلين « زهير » هذا اللين لا يلقى من القوم لينا ، ولكنه  
يلقى منهم سهما يرميه به أحدهم وهو يقول له : أسكت ، أسكت  
الله نأمتك ، أبرمتنا بكثرة كلامك .

والشر لجاج وتراشق بالألفاظ ما لم ترفع فيه يد ، أو يشهر سيف ، أو ينطلق سهم ، فإذا هو عجاج تصطك معه الأسنة ، وتتشاجر السهام ، وتشابك السيوف .

كما حرك قول « زهير » النفوس فثارت ، وحرك هذا السهم النفوس فهاجت ، وتحرك القوم للقوم ، وما تحرك قوم « الحسين » ، ولكن تحرك قوم الكوفة ، فلقدها جت نفوس الحميين فتحركت ألسنتهم بالفرع إلى الله ، وثار نفوس الكوفيين ، فامتدت أيديهم إلى السيوف ، وإذا هم يزحفون ، وإذا على رأسهم « عمر بن سعد » هذا الذي بدأ يذكر العافية ويكاد يؤثرها ، ثم انتهى يؤثر الدنيا ولا يكاد ينساها .

ويفرع « الحر بن يزيد » لما رأى من عزم « عمر » وكان « الحر » قد بدأ كما بدأ « عمر بن سعد » يحب العافية ويرغب فيها ، وحين أوشكت دنياه تغلبه على عافيته فرع يعمل للعافية ، ولا يستجيب للدنيا .

وإذا هو ملتفت إلى « عمر بن سعد » ، يقول له : أصلحك الله ، أمقاتل أنت هذا الرجل ؟ ... فيقول له « عمر بن سعد » إى : والله

قتالا أيسره أن يسقط الرموس ويطيح الأيدي .  
 فيقول له « الحر » : أفنا لكم فى واحدة من الخصال التى  
 عرض عليكم رضا .  
 فيقول « عمر بن سعد » : والله لو كان الأمر إلى لفعلت ،  
 ولكن أميرك قد أبى ذلك .

\*\*\*

وكأنى بـ « عمر بن سعد » قد نسى أن يزيد فيقول : ومن يضمن لى  
 الولاية على الرى .  
 هذه الولاية التى أنسته أن يستجيب للحسين فيأخذ بيده إلى  
 « يزيد » فيضع لتلك الفتن حدا ينصف « الحسين » وينصف  
 « يزيد » ، وما من شك فى أنها كانت ستمضى سلبا . يخرج منها  
 « الحسين » ناجيا بحياته وإن لم ينبج بماخرج يطلبه ، ويخرج منها أهل  
 « الحسين » وغير أهل « الحسين » بحياتهم ، وإن لم يخرجوا منها  
 بما ارتقبوا من مغنم .

ولكن قاتل الله الدنيا : كم تعمى وكم تصم ؟ اوقاتل الله الشهوات ،  
 كم تغلب على العقل والرأى ؟ اوقاتل الله الطمع ، كم ينسى به الطامع

« لا نفس غير نفسه .

\*\*\*

وما يكاد « الحر » يسمع « عمر بن سعد » ويعرف ما انتواه ،  
حتى يردد في نفسه : إني والله أخير نفسي بين الجنة والنار ، ولا  
أختار على الجنة شيئا ؛ ولو قطعت وحرقت .

وإذا هذا الذي تردد في نفسه يتحرك به لسانه ، ويسمعه عنه  
المحيطون به وقد أفصح ، وما دام قد أفصح فقد مَلَكَ الشجاعة  
على أن يفعل ، وقد ملك أن يميل إلى العافية وأن يميل عن الدنيا .  
وهكذا ترك « الحر » ، « عمر بن سعد » إلى « الحسين » .  
ولم يشأ أن يأثم بحربه ، وإذا هو بين يدي « الحسين » يلقى معاذيره  
ويقول له :

« جعلني الله فداك يا بن رسول الله ، أنا صاحبك الذي حبستك  
عن الرجوع ، وسأيرتك في الطريق ، وجعجت بك في هذا  
المكان ، والله الذي لا إله إلا هو ، ما ظننت أن القوم يردون  
عليك ما عرضت عليهم أبدا ، ولا يبالغون منك هذه المنزلة  
أبدا ... وإني قد جئتكم تائبا بما كان مني إلى ربي ، مواسيا لك

بنفسى حتى أموت بين يديك ؛ أفترى ذلك توبة ؟ »  
فيقول له « الحسين » : نعم ... يتوب الله عليك ويغفر لك ..

\*\*\*

ولكن « الحر بن يزيد » على ذلك ؛ كان يرى أن الأمر أهون  
من أن يشعل حربا ، لو حفظ الناس على « الحسين » كرامته  
وإباهه ، وقبوا منه ما عرض .

وكان « الحر » يطمع في أن يؤثر القوم العافية إيثاره ، يطمع  
في ذلك من « عمر بن سعد » أولا ، ثم يطمع في ذلك من أهل  
الكوفة ثانيا .

وقد خبر « الحر » « عمر بن سعد » حينما ، فوجده ممسكا  
بجباين ، أحدهما لدينه ، والآخر لديناه ، يشد على الذى لديناه يده ؛  
ويرخى عن الذى لدينه يده الأخرى ، ولكنه على ذلك لا يفلاته ،  
فطمع « الحر » فى أن يرد « عمر » أحرص على دينه من ديناه ،  
فاتجه إليه وإلى القوم يقول :

أيها القوم : ألا تقبلون من « الحسين » خصلة من هذه  
الخصال التى عرض عليكم فيعافىكم الله من حربه وقتاله ؟



ولكن « الحر » قد نسي أن إلى جانب « عمر » رجلا آخر — هو : « شمر بن ذى الجوشن » — كان عليه وزر هذه الحرب كله ، وكان عينسا له « ابن زياد » على « عمر » أو كان حريصا على أن يتراخى « عمر » فيضرب عنقه ويمضى هو بفخرها .

وقد نسي « الحر » أن « عمر بن سعد » كان ضنينا بديناه ، قد جعل من وجود « شمر » إلى جواره عذرا له وسببا .

ولكن « الحر » إلى هذا كله كان طامعا في هذا السبب الواهى الذى أحس شيئا منه فى نفس « عمر » وهو رغبته فى العافية .

ولقد كان « عمر » كما هو ، رجل دنيا لا رجل دين ، لم يخش ظن الذين عرفوه فيه ، وإن كان قد خشي ظن « الحر » ، حين التفت إليه يقول : لقد حرصت لو وجدت إلى ذلك سبيلا .

ولكن « الحر » الذى يئس من « عمر » لم يئأس من أهل الكوفة ، وإن لهم بـ « الحسين » لأسبابا قد يصلوها لو نهوا إليها ، فالتفت إليهم بعد ما التفت عن « عمر » يقول لهم :

يا أهل الكوفة . أدعوتموه حتى إذا أتاكم أسلمتموه ، وزعمتم

أنكم قاتلو أنفسكم دونه ثم عدوتم عليه لتقتلوه ؟  
 أمسكنم بنفسه ، وأحطتم به ، ومنعتموه من التوجه في بلاد  
 الله العريضة ، حتى يأمن ويأمن أهل بيته ، فأصبح كالأسير  
 لا يملك لنفسه نفعا ولا يدفع عنها ضرا .  
 ومنعتموه ومن معه ماء الفرات الجاري تتمرغ فيه خنازير  
 الوادي وكلابه ، وها هو وأهله قد ضرب بهم العطش .  
 بئسما خلفتم محمدا في ذريته ، لا سقاكم الله يوم الظما إن لم  
 تتوبوا وتنزعوا عما أنتم عليه .

\*\*\*

ولكن النفوس كانت قد استقرت على شيء ، نفوس القادة  
 ونفوس الجنود ، فلم يعد هناك آذان تسمع ، ولا أفئدة تعي ،  
 ولا قلوب تتدبر .

من أجل هذا لم يكن جواب « الحر » إلا النبيل  
 يرمونه به ، وارتد على عقبه يقف أمام « الحسين » يكون  
 له ردأ .

وكانى بـ « عمر بن سعد » قد طال عليه انتظاره ، وكانى به أحس

شوقا إلى ولايته التي وعده بهاء عبيد الله بن زياد ، وكأني به قد  
 عجل ليفرغ من شيء إلى شيء ، وكأني به قد خلع عنه العافية جانبا  
 ولبس ثياب الدنيا ، فإذا هو أول داع إلى الحرب ، وإذا هو  
 أول رام في تلك الحرب ، وإذا هو يشهد على نفسه لتبلغ  
 دابن زياد ، ، ولا يفعلها مستورة فيضيع عليه أجرها . فلقد  
 حكوا عنه أنه أخذ سهما فرمى به ، ثم قال : اشهدوا لي أني  
 أول رام .

\*\*\*

وما كانت حربا فيها التكافؤ فيساق لها خبر وعنها حديث ؛  
 غير أن تلك القلة القليلة التي كانت مع « الحسين » قد استبسلت  
 الاستبسال كله ، ووضعوا أنفسهم دون نفس « الحسين » ،  
 يتخططهم القتل واحدا بعد واحد ، لا يحزنون على أن قتلوا ،  
 ولكن يحزنهم أنهم مضوا عن « الحسين » وتركوه دون نصير ،  
 ولمصير كهذا المصير .

يُصاب « مسلم بن عويجة الأسدي » -- وكان من أنصار  
 « الحسين » -- إصابه قاتلة ، فيدنو منه « حبيب بن مطهر » --

وكان من أنصار « الحسين » -- يقول له : عز عليّ مصرعك .  
أبشر بالجنة ، ولولا أنى أعلم أننى فى إترك لاحق بك لأحببت  
أن توصينى .

\* \* \*

فيقول له « مسلم » - رحمه الله - أوصيك بهذا -- وأوماً بيده  
نحو « الحسين » -- أن تموت دونه .

تلك واحدة تدلك على كثيرات غيرها حملتها نفوس أصحاب  
« الحسين » واستقبلوا بها عدوهم فاستعصوا عليه على قلائسهم ،  
لا يبرز منهم واحد إلا قتل من يبرز له .

ولقد فزعوا خصمهم على كثرتهم ، فإذا هذا الخصم  
يسبر أمره ويرتد مفكراً ، وكان هذا أولى بتلك القلة التى  
حول « الحسين » .

فإذا « عمرو بن الحجاج » -- وهو من فرسان « عمر بن  
سعد » -- يصيح بالناس وهو يقول : أندرون من تقاتلون ؟  
فرسان المصر ، قوما مستميتين ، لا يبرز إليهم منكم أحد ؛  
فإنهم قليل وقلما يبقون . والله لو لم ترموهم إلا

بالحجارة لقتلتموهم .

وما يكاد « عمر بن سعد » يسمعها حتى يحس الراحة ،  
فيقول له : الرأي ما رأيت ، ثم منع الناس من المباشرة .

\* \* \*

وقاتل أصحاب « الحسين » قتالا شديدا ، ولم يسكنوا  
غير اثنين وثلاثين فارسا ، لا يحملون على جانب من خيل  
الكوفة إلا كشفوه .

ويجمع لهم « عمر بن سعد » خمسمائة من الرماة ، يرشقونهم  
بالنبيل ، وما ظنك باثنين وثلاثين فارسا تلقاه خمسمائة رام ، فما  
كاد هؤلاء الرماة يرمون حتى عقروا الخيول كلها ، وإذا هؤلاء  
الفرسان على أرجلهم وقد فقدوا خيولهم .

وعلى الرغم من ذلك فقد قاتل هؤلاء الفرسان الاثنان  
والثلاثون قتالا شديدا ، قاتلوا من مطلع الشمس إلى أن انتصف  
النهار ، يعملون مضاربهم وراء ظهورهم ، يحتمون بها ولا يقاتلون  
إلا من وجه واحد .

ويأمر « عمر بن سعد » بهذه البيوت فتحرق ، ويمضي « شمر »  
حتى يدنو من بيت « الحسين » فينادى : على بالنار حتى أحرق هذا  
البيت على أهله ، فيصيح به النساء ، ويصيح به « الحسين » ، ويصيح

به غير واحد ممن معه ، فينتفى بعد لآى .

• • •

وتكاثروا على « الحسين » وأصحابه ، ورأى أصحاب  
« الحسين » أنهم غير قادرين عليهم ، وأنهم غير قادرين على أن  
يمنعوا « الحسين » ، ولا أن يمنعوا أنفسهم ، فالتفوا بـ « الحسين »  
يتنافسون فى أن يقتلوا بين يديه .

واشتد بـ « الحسين » عطشه ، فدنا من الفرات ليشرب ،  
فرماه أحدهم بسهم ، فوقع فى فمه ، فاختلط ما يشرب من ماء  
الفرات بدمه .

ويقبل « شمر بن ذى الجوشن » فى نفر من رجاله فيحيطون  
بـ « الحسين » ، ويهوى رجل منهم — أحب أن تعرفه باسمه ؛  
فلقد كان « بحر بن كعب بن تيم الله بن ثعلبة » — إلى « الحسين »  
بالسيف ، فيصيح به غلام من أهل « الحسين » كان إلى جنبه : فيقول  
له : أقتل عمى ؟ .

فيهوى « بحر » بالسيف يريد الغلام ، فيثقيه الغلام بيده ،  
فيقطعها « بحر » ، ويصيح الغلام باكيا ، فيضمه إليه « الحسين » .

وهو يقول له : اصبر يا بن أخى على منازل بك .  
وينكشف من حول « الحسين » من أصحابه عنه من حر  
الضرب ، ويبقى « الحسين » فى ثلاثة أو أربعة . و « الحسين »  
يحمل على الذين عن يمينه ، ويحمل على الذين عن يساره ،  
ينكشف هؤلاء عنه إذا حمل ، وينكشف هؤلاء عنه إذا حمل ،  
كانهم المعزى قد شد فيها الذئب .

ولو شاء الناس أن يقتلوه لقتلوه ، ولكنهم كان يتقى بعضهم  
ببعض ، ويجب هؤلاء أن يكفيهم هؤلاء .

« والحسين » بينهم ينادى : أعلى قتلى تجتمعون ؟ أما والله  
لا تقتلون بعدى عبدا من عباد الله أسخط عليكم لقتله منى .  
وينادى « شمر » فى الناس : ويحكم ، ماذا تنتظرون بالرجل ،  
اقتلوه ثكلتكم أمهاتكم .

وكما خاف « عمر بن سعد » « شمر بن ذى الجوشن » خافه  
هؤلاء القوم ، وكان لهم فى قائدهم « عمر » أسوة ، فملوا جميعهم  
على « الحسين » .

يضربه « زرعة بن شريك التيمى » على كفه اليسرى ،



ويضربه على عاتقه ، ثم انفرجوا عنه قليلا ، وهو يقوم ويكبو  
ويحمل عليه « سنان بن أنس النخعي » وهو على حاله تلك ،  
فيطعنه بالرمح فيقع على الأرض .

ويصيح « سنان بن أنس » برجل إلى جانبه هو « خولى بن يزيد  
الأصبحي » ليحتز رأسه . ويحاول « خولى » أن يفعل ، فترعده يده .  
فينزل « سنان » عن فرسه ، وهو يلعن « خولى بن يزيد »  
ويجثم على « الحسين » يذبجه ويحتز رأسه ، ويدفع بالرأس إلى « خولى »  
وإذا هم بعد هذا كله يسلبون « الحسين » ما عليه ، فيأخذ  
« بحر » سراويله ، ويأخذ « قيس بن الأشعث » قطيعته ، ويأخذ  
« الأسود الأزدي » نعليه ، ويأخذ رجل من دارم سيفه ، ويميل  
نفر على الفرش والحلل والإبل فينتهبونها .

ألم يأمرهم أن يفعلوا هذا وغيره « ابن زياد » ؟ وهل منهم  
عن أحد إلا وقد ملأ قلبه خوف « ابن زياد » ؟ وهل منهم من أحد  
إلا وهو راغب فيما عند « ابن زياد » .

ولكن أين القلوب التي آذرت « الحسين » ؟ ما بالها قد فقدت  
الرحمة حين ملأها الخوف والطمع ؟ وما بالها قد أنسيت أن من

قتلت د ابن بنت رسول الله ؟ وما بالها قد أنسيت أن من تمثّل به  
رجلهم الذى التقوا به من قبل .

ولكنك لا تنس أن الآئمين أحاد ، وأن الكثرة المشاركة كانت  
مسوقة إلى حرب لم يبلغ الظن بها أن تُسَف إلى هذا .

فلقد كان هينا عليهم شيئا أن يمضى د الحسين ، مقتولا ، وأن  
ينال ما لا يحصى من الطعنات والضربات ، ولكن لم يكن هينا  
عليهم أن يُقطع رأسه ، وأن يُمثّل به ، وأن يُسلب ما عليه من  
ثياب على هذه الصورة المعيبة .

ولكننا قبل أن نُسَدِل الستار على مقتل « الحسين » نحب أن نعود قليلا إلى « عمر بن سعد » الذي غلبته دنياه على قلبه . وما نحب أن نعود إليه بعدما سقنا لك ما كان إلا لنذكر له ما أعطى إلى جانب ما أخذ ، ولقد كان ما أعطاه لـ « الحسين » قليلا بجانب ما غلبه عليه ، ولو أن أمره مضى على غير هذا ، ورجح ما أعطى ما أخذ ، لخرج « الحسين » من هذه الفتنة موفور الكرامة موفرة عليه حياته .

ولكن هكذا أراد الله لـ « عمر » ، وهكذا أراد الله لـ « الحسين » .

غير أن « عمر بن سعد » هذا الذي كان أول رام وقال للناس اشهدوا .

و « عمر بن سعد » هذا الذي حرق على أهل « الحسين » بيوتهم .

و « عمر بن سعد » هذا الذي صال في هذه الحرب وجال .

هو « عمر بن سعد » الذى وقف يبكى لما انكشف « الحسين » وأحاط به الناس يطعنونه ويضربونه؛ حتى بل دمه خديه ولحيته؛ وذلك حين دنت منه « زينب » تقول له: يا عمر، أيقـتـيل أبو عبد الله وأنت تنظر إليه .

وهو أيضا « عمر بن سعد » الذى وقف للناس بعد مقتل « الحسين » وهو يدفع عن بيت « الحسين » ويقول : لا يدخلن بيت هؤلاء النسوة أحد ، ومن أخذ من متاعهن شيئا فليرده .

وهو أيضا « عمر بن سعد » الذى حذف « سنان بن أنس » قاتل « الحسين » بالقضيب حين وقف على باب فسطاطه ، وهو يـنـشد :

أوفو ركابي فضة وذهبا      إني قتلت السيد المحتجا  
قتلت خير الناس أما وأبا      وخيرهم إذ ينسبون نسبـا  
وهو أيضا « عمر بن سعد » الذى خلى سبيل « عقبة بن سميان » مولى « الرباب » امرأة « الحسين » وكان ثانيا اثنين نجوا من تلك الحرب .

وايكنه كان أيضا بعد هذا كله «عمر بن سعد» الذي نادى  
في أصحابه بعد مقتل «الحسين» : من ينتدب إلى «الحسين»  
فيوطئه فرسه ، فانتدب عشرة ، فداسو «الحسين» بخيولهم حتى  
رضوا ظهره وصدره .

نعم كان «عمر بن سعد» هو الذي فعل هذا وهذا ، خاف  
«ابن زياد» ، وطمع فيه ، فوفى له بكل ما طلب منه جهره وعلى  
رهوس الأشهاد .

وذكر دينه وما يجب عليه من حرمة نحو «الحسين» وآله ،  
ففعل ما فعل تنفيسا عما يمكن وكان عليه مرغما .

وماض حياة ، الناس وأفسدها عليهم إلا أمثال «عمر بن سعد» ،  
يدخلونها على الناس وهم قادة وإليهم الأمر والناس لهم يطيعون ،  
فإذا هم يركبون بالناس مثل هذا المركب الوعر الخشن ، وإذا هم  
مع الناس خاسرون .

وايكن ما يخسره الناس معوضوه بعد حين -- يقصر  
و يطول -- حين يعلمون أن قادتهم لم يحسنوا قيادتهم  
وسخطوا عليهم شططا .

أما ما يخسرهُ القادة فهم غير معوضيه ، فإنهم لاشك ماضون ،  
بالخزي الباقي والعار الدائم والسبة التي لا تنمحى .  
والناس لاشك مفيدون -- إلى جانب ما أفادوا -- من هذا  
الخزي وذاك العار وتلك السبة عظات كثيرة .

ويحمل رأس « الحسين » إلى « ابن زياد » ، « خولى بن يزيد » .  
وما أظنك نسيت « خولى بن يزيد » ، فيجد « خولى » ، قصر  
« ابن زياد » مغلقا ، فيمضى برأس « الحسين » إلى منزله ، فيضع  
الرأسين تحت إجازة ، ويدخل إلى امرأته « النوار » هاشما باشا  
يقول لها : جئت بك بغنى الدهر ، هذا رأس « الحسين » معك  
فى الدار .

فتقول له « النوار » امرأته : ويلك ، جاء الناس بالذهب  
والفضة ، وجئت برأس ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ،  
والله لا يجمع رأسى ورأسك بيت أبدا ، ثم تخرج عنه .  
هذا مال بنى أمية يغرية ، وجاه الدنيا يعميه ، وتلك يردها  
إلى الصواب حب لرسول الله وحب لبنيه .

ولقد كان المغرورون المخدوعون كثرة ، وكان جُرم القتل كبيراً ، وشناعته مفضحة ، فأب هؤلاء المغرورون المخدوعون بعد حين قلة ، وآب جرم القتل حديث القلوب أولاً ، ثم حديث الألسن ثانياً ، ثم انتقل هذا الحديث إلى الأيدي فعلاً وعملاً ، مما استسرف خبره بعد حين قليل .

\* \* \*

فلقد جلس « ابن زياد » ورأس « الحسين » بين يديه ، وهو ينسكث بقضيب بين ثنيتيه ساعة ، فيثور به « زيد بن الأرقم » وهو يقول له : ارفع هذا القضيب عن هاتين الشفتين ، فوالذى لا إله غيره ، لقد رأيت شففى رسول الله صلى الله عليه وسلم على هاتين الشفتين تقبلهما . . . ثم بكى .

وهكذا رأى « ابن زياد » الشر الذى أراد أن يقضى عليه بالقضاء على « الحسين » يطل برأسه مرة ثانية ، وكما لم ينس « ابن زياد » شدته فى الأولى ، لم ينسها فى الثانية ، فالتفت إلى « زيد بن الأرقم » يقول له : أبكى الله عينيك ، فوالله لولا أنك شيخ قد خرفت وذهب عقلك لضربت عنقك .

تخرج عنه « ابن الأرقم » وهو يقول : أنتم يامعشر العرب  
العبيد بعد اليوم : قتلتُم ابن فاطمة ، وأمّرتُم « ابن مرجانة » ، —  
يعنى « ابن زياد » — فهو يقتل خياركم ، ويستعبد شراركم ، فرضيتُم  
بالذل ، فبعدا لمن يرضى بالذل .

\*\*\*

ولقد جلس « ابن زياد » لآل « الحسين » من نسائه ، حين  
جلسن بين يديه ، و « زينب » أخت « الحسين » فى أرذل ثيابها  
متنكرة . فيقول « ابن زياد » : من هذه الجالسة ؟ فلا تكلمه .  
يقولها ثلاثا وهى لا تكلمه .

فتقول أُمّة من إماءها : هذه « زينب بنت فاطمة » .  
فيقول لها « ابن زياد » : الحمد لله الذى فضحككم وقتلكم  
و كذب أحدوئتكم .

فتقول له « زينب » : الحمد لله الذى أكرمنا بحمد صلى الله عليه  
وسلم وطهرنا تطهيرا ، لا كما تقول أنت ، وإنما يُفتضح الفاسق  
ويكذب الفاجر .

فيقول لها « ابن زياد » : فكيف رأيتِ صنْع الله



بأهل بيتك ؟ ...

فتقول له « زينب » : كتب عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم  
وسيجتمع الله بينك وبينهم فتختصمون عنده .

ثم ينظر « ابن زياد » إلى « علي بن الحسين » ، فيقول له :  
ما اسمك ؟ ...

فيقول : « علي بن الحسين » .

فيقول « ابن زياد » : أألم يقتل الله « علي بن الحسين » ؟

فيسكت « علي بن الحسين » .

فيقول له « ابن زياد » : مالك لا تتكلم ؟ .

فيقول « علي بن الحسين » : الله يتوفى الأنفس حين موتها ،

وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله .

فيقول له « ابن زياد » : أنت والله منهم .

ثم يلتفت « ابن زياد » : إلى رجل بجواره ، فيقول له :

اقطعه ؟ ...

\* \* \*

وينادي منادى « ابن زياد » في الناس ، فيجتمعوا في المسجد ،

ويصعد « ابن زياد » المنبر يخطب الناس فيقول :  
الحمد لله الذى أظهر الحق وأهله ، ونصر أمير المؤمنين  
« يزيد » وحزبه ، وقتل الكذاب ابن الكذاب « الحسين بن  
على » وشيعته .

فيثب إليه « عبد الله بن عفيف الأزدي » فيقول له : يا بن  
مرجانة ، إن الكذاب ابن الكذاب أنت وأبوك ، والذى  
ولاك وأبوه .

يا بن مرجانه ، أتقتلون أبناء النبيين وتكلمون بكلام  
الصديقين .

فيقول « ابن زياد » : على به .

فيثور معه « الأزديون » ويحملونه إلى داره ، فيرسل  
« ابن زياد » من يأتيه به ، ثم يأمر به فيقتل ، ثم يأمر به فيصلب  
فى المسجد .

\*\*\*

وهكذا دخل « ابن زياد » بالذى ارتكب من غلظة ، فى  
الشر الذى أراد أن يخرج منه .

وهكذا مضت هذه الثورات الصغيرة لمقتل « الحسين » تهى  
لثورات كبيرة .

وهكذا أفسد « ابن زياد » على الأمويين أمرهم الذى  
انتدبوه له ليصلحه .

وهكذا مضى « ابن زياد » يخرج من عنف ليدخل فى عنف ،  
ويترك قسوة لتركب أخرى .

فقد أمر « ابن زياد » برأس « الحسين » أن يحمل على خشبة  
فيطاف به فى الكوفة ، يظن أنه يلقى الرعب فى القلوب ، وقد ألقاه  
حقاً كما ظن ؛ ولكنه ألقى إلى جانبه الأسى للمقتول ، والخسرة  
على التفريط فى نصره ، وهياً هذه القلوب لشر كبير .

\*\*\*

ولقد أدرك « يزيد » ما جره عليه « ابن زياد » حين دخل  
الرسول يذبحه بما كان منهم نحو « الحسين » وآله ، يزور له فى  
العبارة ، ويجود فى الكلام ، يبغى أن يسره ويدخل البشر عليه .  
فإذا « يزيد » تدمع عيناه ، وإذا هو يقول لهذا الرسول :  
كنت أرى من طاعتكم بدون قتال « الحسين » لعن الله

ابن سمية ، أما والله لو أني صاحبه لعفوت عنه . فرحم الله  
« الحسين » ، وما وصل ذلك الرسول بشيء على بشره .

\*\*\*

ألا ليت «عمر بن سعد» كان حاضرا لهما لسمعهما من «يزيد» .  
ثم ألا ليت «عمر بن سعد» أدرك أنه كان مدركا عند «يزيد»  
فوق ما كان يرجو عند «ابن زياد» ، دون أن يآثم أو يجر على  
نفسه ، وعلى الأمويين شرا .

وهكذا استقبال الأمويون بمقتل «الحسين» شيئاً جديداً ،  
فأفقدت الأمور تستقيم لهم بنزول «الحسين» عن حقه ، ولقد  
كادت الأمور تستقيم لهم حين رغب «الحسن» في أن يلقى «يزيد» ،  
وهو حين يلقاه - لو تم له ما طلب - كان لاشك معطياً ما أعطى  
«الحسن» أو معطياً شيئاً قريباً منه ، يسد على الأمويين باب الفتنة ،  
ويُسكت الداعين ويردهم إلى نوع من السكون ، ولقد كان  
الأمويون قادرين - في ظل هذا السكون - على أن يعضوا في إغرائهم  
- وهم يملكون خزائن الأرض - فيجمعوا الناس حولهم ، وهم  
لاشك كاسبون في ظل الأمن ؛ - إذ هم يملكون الأسباب التي بها  
تشتري النفوس ، وتصرف القلوب ؛ على حين كان «الحسين»  
وآله لا يملكون منها إلا القليل ، وهم لاشك كاسبون في ظل  
هذا الأمن لأنهم لن يعطوا خصوصهم ما يثيرون به القلوب  
عليهم ، وهم لاشك كاسبون في ظل هذا الأمن وتلك المواقعة  
التي رغب فيها «الحسين» ، ولم يُجِب إليها ، لأن الشيعة لم ينفروا مع

«الحسين» إلا حين رأوه ثار الحق ، رافضاً أن يُعطى «يزيد» وهم  
حين يرون «الحسين» يوادعوا - عون .  
واقعد كان غير «الحسين» من آله لا تمتلأ قلوبهم الحمية التي  
ملأت قلبه ، واقعد كان إرضاءهم ليس بالشئ العسير على  
الأمويين لو أرادوه ، واقعد كان صرْفهم عن «الحسين» وضمهم  
إلى «يزيد» يسيراً على «يزيد» ، لو لم تجر الآه ور على هذا النحو  
الذي جرت عليه . وانتهت بمقتل «الحسين» على تلك الصورة  
المفزع .

\*\*\*

لهذا ارتد الشيعة إلى أقوى ما كانوا عليه - حياة «الحسين»  
وارتد آل «الحسين» ، أطمع ما يكونون فيما كادوا ينزلون  
عنه .

فلقد امتلأت قلوب الشيعة حسرة على ما فرطوا فيه ، وألمأ  
على تخاذلهم ، وكادوا يعدون أنفسهم شركاء في إهدار دم  
«الحسين» .

واقعد صحا آل «الحسين» على مقتل «الحسين» صهوة قوية

عنيفة ، يذكيها النار ، وما خلصت نفوسهم منه ، ويذكيها تهيو  
الشيعة لجديد من الأمر ، ويذكيها غضب الناس من حولهم من  
ليسوا بشيعة ولا أهل .

وهكذا خرج آل « الحسين » من مقتل « الحسين » بحافزات  
أربع :

فلقد كسبوا الشيعة بعد أن كاد « الحسين » يخسرهم .

ولقد كسبوا أنصارا آخرين كانوا عنهم بمعزل .

ولقد كسبوا هم أنفسهم بعد أن كادت تهون وتلين .

ولقد كسبوا شيئا آخر كان له خطره ، وكان لا يقل شأننا عن

هذه الثلاثة الأولى ، فلقد كسبوا حجة على الأمويين فيما ارتكبوا

من عنف وغلظة ، كانت في أيديهم أقوى سلاح وأمضاء ، كلها

لانت للقلوب حركوها بها ، ألا وهي مقتل « الحسين » .



أحسها « يزيد » لاذعة موهنة حين باغى ما فعل « ابن زياد »

فقال :

ما علىّ لو احتمات الأذى وأنزلت « الحسين » معي في داري

وحكمته فيما يريد ، وإن كان علىّ في ذلك وهن في سلطاني ،  
 حفظا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورعاية لحقه وقرابته ، لعن  
 الله « ابن مرجانة » فإنه اضطره ، وقد سأله أن يضع يده في يدي ،  
 أو يلحق بثغر حتى يتوفاه الله ، فلم يجبه إلى ذلك فقتله ، فبغضني  
 بقتله إلى المسلمين ، وزرع في قلوبهم العداوة ، فأبغضني البر والفاجر ،  
 بما استعظموه من قتل « الحسين » ، ما لي ولا بن مرجانة لعنه الله  
 وغضب عليه .

أما والله لو أني صاحبه ما سألتني خصلة أبداً إلا أعطيته إياها ،  
 ولدفعت الحتف عنه بكل ما استطعت ، ولو بهلاك بعض ولدي ،  
 ولكن قضى الله .

• • •

وأحسها المروانيون من حول « يزيد » حين حُمل رأس  
 « الحسين » إلى الشام .

فلقد جاء القوم « مروان بن الحكم » يسألهم : ما صنعوا ، فلما  
 علم ما كان انصرف عنهم مغضبا .

ولقد جاءهم « يحيى بن الحكم » يسألهم هو الآخر : ما صنعوا .



فلما علم ما عندهم : انصرف عنهم مغضبا وهو يقول : لن أجامعكم  
على أمر أبدا .

ودخل على « يزيد » وهو ينشد :

نُهام<sup>(١)</sup> مجيب الطف أدنى قرابة

من ابن زياد العبد ذى الحسب الوغل

شمسة أمسى نسلها عدد الحصى

وليس لآل المصطفى اليوم من نسل

ولقد بكت « الحسين » نساء المروانيين مع رجالهم ، ونحن

عليه ، وأقن المائتم .

. . .

وإذا تركنا الشام معقل الأمويين إلى غيرها ، رأينا البلبلة التي

ملككت على الأمويين ، وعلى غير الأمويين ألبابهم ، قد ملككت

الساب أهل المدينة ففر عنهم ، ولسان حالهم ينشد :

أيها القاتلون جهلا حسينا

أبشروا بالعذاب والتشكيل

كل أهل السماء يدعو عليكم  
من نبي ومَلَأَك وقيل  
قد لعنتم على لسان ابن داو  
د وموسى وصاحب الإنجيل  
وإذ ما تركنا الشام والمدينة إلى غيرهما رأينا الناس موهين  
مهمومين، قد امتلأت قلوبهم حسرة وأسى.

وما قُتِل « الحسين » وحده في هذه الفتنة ، فيهنون الأمر  
شيئاً على ذويه أولاً ، وعلى المسلمين ثانياً ، وعلى الشيعة ثالثاً ،  
ولكنه قتل إلى جانبه في هذه الفتنة كل من كان معه  
من آله :

قُتِل « العباس بن علي » ، وقُتِل « جعفر بن علي » ،  
وقُتِل « عبد الله بن علي » ، وقُتِل « عثمان بن علي » ، وقُتِل  
« محمد بن علي » ، وقُتِل « أبو بكر بن علي » ، وقُتِل  
« علي بن الحسين بن علي » ، وقُتِل « عبد الله بن الحسين بن علي » ،  
وقُتِل « أبو بكر بن الحسين بن علي » ، وقُتِل « القاسم بن الحسين  
بن علي » ، وقُتِل « عون بن جعفر بن أبي طالب » ،  
وقُتِل « محمد بن عبد الله بن جعفر » ، وقُتِل « جعفر بن عقيل  
بن أبي طالب » ، وقُتِل « عبد الرحمن بن عقيل » ، وقُتِل  
« عبد الله بن عقيل » ، وقُتِل « مسلم بن عقيل » ، وقُتِل  
« عبد الله بن مسلم بن عقيل » ، وقُتِل « محمد بن أبي سعيد بن عقيل »

وقتل من موالئهم : « سليم » مولى « الحسين » ، و قتل  
« منجج » ، مولى « الحسين » ، و قتل « عبد الله بن بقطر » ،  
رضيع « الحسين » .  
واستصغروا « الحسن بن الحسن بن علي » ، و « عمرو بن  
الحسن » ، فلم يقتلوهما .

\*\*\*

وهكذا كانت حرب استئصال - كما رأيت - لم يبق فيها  
« ابن زياد » ولم يذر .

وصدق « يحيى بن الحكم » حين قال :

سمية أمسى نسلها عدداً الحصى

وليس لآل المصطفى اليوم من نسل

\*\*\*

وإن الحجة التي ملّسوها « ابن زياد » للناس على « الأمويين »  
وعلى رأسهم « يزيد » ، ملّسوها « ابن زياد » للناس عليه ، فإذا هو  
الآخر يريد أن يخلص من إثمها ، كما أراد « يزيد » أن يخلص  
من إثمها ، وإذا « ابن زياد » يرى « يزيد » قد ملك « عذره »

وحمله هو تبعها ، فنجى « يزيد » — فيما ظن « ابن زياد » —  
من شرها ليتقبل خيرها ، وآب « ابن زياد » بشرها وهو في  
شك من خيرها .

عندها ارتد « ابن زياد » يفكر ، وماله هو الآخر  
لا يكون له عذر « يزيد » ، على الناس ، وماله هو الآخر لا يحمل  
تبعها « عمر بن سعد » فينجو كما نجى « يزيد » من إثمها ، ويحمله كله  
كاملا « عمر بن سعد » .

من أجل ذلك دعا « ابن زياد » إليه « عمر بن سعد » يسأله  
أن يأتيه بالكتاب الذى كتبه إليه فى قتل « الحسين » .

وهنا يدرك « عمر بن سعد » ما يُراد به ، وينسى ما عند  
« ابن زياد » بما عند الله ، وينسى لذة المظمع بمرارة الغدر ،  
وينسى هذه الدنيا بحقد الناس عليه ، فالتفت إلى « ابن زياد »  
يقول له : مضيت لأمرك وضاع الكتاب .

ويعرف « ابن زياد » أن « عمر بن سعد » يكرهه ، وأن  
كتابا كهذا ان يفرط فيه « عمر بن سعد » ويعرف أن  
الكتاب لا زال فى يد « عمر بن سعد » يحتفظ به ، فيسأل

ويلج في السؤال .

وإذا كان « عمر بن سعد » قد خانته وفاؤه ، فلن يخونه دهاؤه ،  
وإذا كانت الدنيا قد غلبته على أمره مرة فلن تغلبه أخرى ، وإذا كان  
لم يقدر لأمره من قبل يروده الصواب ؛ فما أولاه أن يقدر له اليوم  
والصواب رائده ، ثم ماله هو الآخر لا يخرج من الفتنة وله عذره ،  
وليدع « ابن زياد » يخرج بإثمها كله ، كما فعل به « يزيد » ، وما عليه  
أن يخسر ما عند « ابن زياد » فلقد رآه ، شيئا لا يخفى لزما ما هو  
لاق على السنة الناس وزارع في قلوبهم .

لهذا التفت « عمر بن سعد » إلى « ابن زياد » يقول له :  
تركته والله يُقرأ على عجايز قریش بالمدينة اعتذاراً إليهن .

أما والله لقد نصحتك في « الحسين » نصيحة لو نصحتها أبي  
« سعد بن أبي وقاص » لكنت قد أدبت حقه .

وهكذا خرج « ابن زياد » وآله بإثمها كله ، فيما ظن « يزيد » ،  
وفما ظن « عمر بن سعد » . ولقد صدق « عثمان » أخو « ابن زياد »  
حين قال وهو يعقب على كلام « عمر بن سعد » : صدق ؛ والله  
لوددت أنه ليس من بني زياد رجل إلا وفي أنفه خزامة إلى يوم

القيامة ، وأن « الحسين » لم يقتل .

\* \* \*

وليحمل « ابن زياد » إثم قتل « الحسين » ، وليحمل « عمر بن سعد » إثم قتل « الحسين » أو لا يحمله ، وليخرج « يزيد » من هذا الإثم بما بداله .

ولكن « قتل « الحسين » وآله » لم يكن شيئاً يبحث فيه عن القاتل ليقتص منه ، ولم يكن شيئاً يعذر فيه القاتلون إلى الناس ، ولكنه كان جرحاً لا يندمل ، وكان شراً لا تهدأ ثائرته ، وكان فتنة ظن الأمويون أنهم قادرون عليها أول الأمر ، فإذا هي فتنة هم عاجزون عنها آخر الأمر .

وكما لم يسكت الأمويون مع مقتل « عثمان » وهبوا يطالبون بقاتليه ، واتخذوا من ذلك وسيلة لهم لحرب « علي » .  
كذلك لم يسكت الهاشميون عن المطالبة بدم « الحسين » وهبوا يطالبون بقاتليه .

ولقد كان قاتلو « عثمان » حفة من الناس لم تنبئ حالهم ، وكانت المطالبة بهم لا تضير كثيراً ، وهي مع ذلك أعطت الأمويين

أسباب الغلبة ، وأثارت معهم الناس .  
 وكان قاتلو « الحسين » عمالا للأدويين وقادة ، لم تغب  
 حالهم ، وكانوا في ذلك القتل عامدين قاصدين مدبرين ، وكانت  
 المطالبة بهم تطلب الخروج على الدولة الأموية ، والثورة بها ،  
 والسعى لزعزعتها ؛ لذلك دبر الهاشميون ، وبشوا دعائهم ،  
 لينتصفو الأنفسهم ، ولينالوا من عدوهم ، ترهبهم قوة الأمويين  
 فيلينون شيئا ، وليكنهم على ذلك لم ينسوا ، وظلوا يناوئونهم  
 حتى يكتب لهم النصر آخر الأمر ، يزيدهم ضعف الدولة الأموية  
 قوة ، ويزيدهم التفاف الناس حول دعائهم قوة ، ويزيدهم  
 أن الناس لم ينسوا مقتل « الحسين » وآله قوة ، وإذا هم آخر  
 الأمر يغلبون الأمويين على أمرهم .

وكما دخل الأمويون إلى الحكم بدم « عثمان » دخل الهاشميون  
 إلى الحكم بدم « الحسين » ؛ مع فرق بين الحالين :  
 فقد سعى الأمويون إلى الحكم فاستخلصوه لأنفسهم ، دون  
 أن يخسروا فيه إلا دم « عثمان » .

ولقد سعى آل أبي طالب بن عبد المطلب إلى الحكم



يستخلصوه لأنفسهم ، فإذا علم قد خسروا فيه كل دماهم ، وإذا  
الحكم آخر الأمر إلى عمومهم آل « عباس بن عبد المطلب » ،

.....

فلقد نزل عنها — وهي لا تزال دعوة — « أبو هاشم بن محمد بن علي بن  
أبي طالب » ، في مرض الموت ، إلى « علي بن عبد الله بن العباس » ، ثم  
يموت « علي » ويتلقها ابنه « محمد » .

ثم يموت « محمد » بعد أن يمهّد لابنه « إبراهيم » ، ثم يموت  
« إبراهيم » بعد أن يمهّد لأخيه « أبي العباس السفاح » عبد الله بن  
محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، رأس الدولة العباسية ، وأول  
خلفائها .

وبـ « أبي العباس السفاح » كان ميلاد الدولة العباسية ، وعلى يديه  
يجرّ الأمويون ما جرّعوه للهاشمين ؛ يسعى إلى استئصالهم ، كما  
استأصاوا إخوانا لهم من قبل ، تحدّوه القسوة التي حدثت «  
« ابن زياد » ، وهو يتمثل قول « سديف » الشاعر :

لا يغرّك ما ترى من رجال      إن تحت الضلوع داء دويّا  
فضع السيف وارفع السوط حتى      لا ترى فوق ظهرها أمويّا





